

راقصة المعبد

توفيق الحكيم



راقصة المعبد

توفيق الحكيم

راقصة المعبد

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مطبوعات
محمد جوده السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ^{عليه السلام} (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

٢٢	— شجرة الحكم (صور سياسية)	١٩٤٥
٢٣	— الملك أوديب (مسرحية)	١٩٤٩
٢٤	— مسرح المجتمع (٢١ مسرحية)	١٩٥٠
٢٥	— فن الأدب (مقالات)	١٩٥٢
٢٦	— عدالة وفن (قصص)	١٩٥٣
٢٧	— أرني الله (قصص فلسفية)	١٩٥٣
٢٨	— عصا الحكيم (خطرات حوارية)	١٩٥٤
٢٩	— تأملات في السياسة (فكر)	١٩٥٤
٣٠	— الأيدى الناعمة (مسرحية)	١٩٥٩
٣١	— التعادلية (فكر)	١٩٥٥
٣٢	— إيزيس (مسرحية)	١٩٥٥
٣٣	— الصفقة (مسرحية)	١٩٥٦
٣٤	— المسرح المتنوع (٢١ مسرحية)	١٩٥٦
٣٥	— لعبة الموت (مسرحية)	١٩٥٧
٣٦	— أشواك السلام (مسرحية)	١٩٥٧
٣٧	— رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية)	١٩٥٧
٣٨	— السلطان الحائر (مسرحية)	١٩٦٠
٣٩	— يا طالع الشجرة (مسرحية)	١٩٦٢
٤٠	— الطعام لكل فم (مسرحية)	١٩٦٣
٤١	— رحلة الربيع والخريف (شعر)	١٩٦٤
٤٢	— سجن العمر (سيرة ذاتية)	١٩٦٤
٤٣	— شمس النهار (مسرحية)	١٩٦٥

٤٤	— مصير صرصار (مسرحية)	١٩٦٦
٤٥	— الورطة (مسرحية)	١٩٦٦
٤٦	— ليلة الزفاف (قصص قصيرة)	١٩٦٦
٤٧	— قالبنا المسرحي (دراسة)	١٩٦٧
٤٨	— بنك القلق (رواية مسرحية)	١٩٦٧
٤٩	— مجلس العدل (مسرحيات قصيرة)	١٩٧٢
٥٠	— رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
٥١	— حديث مع الكوكب (حوار فلسفي)	١٩٧٤
٥٢	— الدنيا رواية هزلية (مسرحية)	١٩٧٤
٥٣	— عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
٥٤	— في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية)	١٩٧٥
٥٥	— الحمير (مسرحية)	١٩٧٥
٥٦	— ثورة الشباب (مقالات)	١٩٧٥
٥٧	— بين الفكر والفن (مقالات)	١٩٧٦
٥٨	— أدب الحياة (مقالات)	١٩٧٦
٥٩	— مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير)	١٩٧٧
٦٠	— تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات)	١٩٨٠
٦١	— ملامح داخلية (حوار مع المؤلف)	١٩٨٢
٦٢	— التعاادلة مع الإسلام والتعاضدية (فكر فلسفي)	١٩٨٣
٦٣	— الأحاديث الأربعة (فكر ديني)	١٩٨٣
٦٤	— مصر بين عهديين (ذكريات)	١٩٨٣
٦٥	— شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩)	١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (ييلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثري كنتنترا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ، وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت التمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثري كنتنتز بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثري كنتنتز) واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدي الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .

مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .

مع : كل شيء في مكانه .

السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .

المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة توبليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج ببرلين .

عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

روعى فى إصدار الطبعة الثانية من :
« راقصة المعبد » أن تكون مسبقة بقطعة
« العوالم » ، لاتحادهما إلى حد ما ، فى الموضوع
والإطار : فهما تدوران حول طائفة بعينها من أهل
الفن ، كما أن حوادثهما تجرى ، بالمصادفة ، فى
قطار ..

العوالم (★)

إلى

« الأسطى حميدة الإسكندرانفة » :
أول من علمنى كلمة « الفن » ...

(★) المقصود هنا بطائفة « العوالم » فى مصر منذ نيف وثلث قرن ، وقد
انقرضت اليوم .

قبيل قيام القطار من محطة مصر بنحو خمس دقائق ، نزل الحاج
محمد المطيب من عربة الدرجة الثالثة ، ووقف على الرصيف بجوار
النافذة يجفف عرقه ويسعل سعال « أصحاب الكيف » الذين
يعيشون بأنفاس « التعميرة » ... ثم صاح :

— يا الله ... رمضان كريم ...

وسعل سعلة انتهت ببصقة كبيرة ... وألقى نظرة اطمئنان
سريعة على الأسطى حميدة وجميع أفراد التخت .. وقد
« انحشرون » في مقعدين متقابلين بطرف العربة ، تتوسطهن صرر
الآلات ... ثم قال :

— أدبني بلا قافية رستأتكم في ركن معتبر ... خليكو بقا كده
باذن الله لحد محطة سيدى جابر ...

فرفعت الأسطى حميدة يديها إلى السماء بقوة ..

— شيلله يا سيدى جابر .. الفاتحة يا ولاد لسيدى جابر ..

فصاح الحاج محمد بسرعة :

— بس .. حاسبي .. بلا قافية إيدك حاتوقع الرق من فوق
الصبره على العود تنقطم رقبتة ..

— شربره وبعيد ... شيلله يا سيدى جابر .. إلهي يجبر بخاطرنا
بسرہ الباتع ... إلا يا حاج محمد .. دى المستعجله دى ولا
المفتخر !؟ ...

— المستعجلة .. هو من غير مؤاخذه المفتخر يبقى فيه
« ترسو » !؟ ...

— هلبت على كده ما نطب هناك بعد مدفع الفطور ..
— على أبو التسعين ... حا تلاقوا حد من طرف بيت الفرح
مستنطركم على المحطة ...

وعندئذ رنت ضحكة سخرية من سُلْم « الرقاقة » العاجزة
أردفتها بقولها :

— وان ما كنش حد فى انتظارنا يا ادلعدى ... دى ساعة فطار
وكل من كان همه فى بطينه ! ..

(راقصة المعبد)

فالتفتت إليها الأسطى حميدة وقالت :

— النبي تنسدى ... وتحطى على ميلتك برش ... العلوان
معايه ...

فابتسم الحاج محمد وقال :

— براوه عليك يا أسطى حميدة ... أهو بلا قافيه ان ما كانش
حد فى استنظاركم ، أديك معاك العلوان ...
وكانت الأسطى حميدة « بجلالة قدرها » لم تفكر فى العنوان
إلا فى هذه اللحظة ... ذلك لأنها أخذت فجأة تبحث عنه فى
ملابسها وفى صدرها ... ثم التفتت إلى فاطمة « الرقاصة »
وقالت بقلق :

— بت يا فاطنه .. الورقه اللى اديتها لك فين ، واحنا فى
الخنطور ؟؟؟ ...

فأجابتها :

— ما هي ملفوف فيها الصاجات ...

فدقت الأسطى حميدة على صدرها صارخة :

— صاجات يا بت ؟ ... الورقه اللى فيها العلوان ... إلهى
يسخبطك ...

فتجهم وجه الحاج محمد قليلا وقال :
— بقا بلا قافيه مش عارفين تستحرصوا على حصة
ورقه ...

وهنا دق جرس المحطة الأول ، فصاح جميع أفراد التخت فى
وقت واحد بغير نظام ولا ترتيب :

— نشوف وشك فى خير يا حاج محمد ...
ولكن الحاج محمد أشار إليهم بالسكون :
— هس ... لسه ... هس ... سمع ... لسه فاضل كان من
غير مؤاخذه جرس ...

ثم سعل وبصق وصاح :
— يالله ... رمضان كريم ...
فقال الأسطى حميدة وهى تبتسم بخبث :
— بحق يا حاج محمد ... دا انت صايم ... الهى يصبرك ...

فلم يجب الحاج محمد ... ولم يتنبه إلى ابتسامات الخبث والسخرية
التي تبودلت بين جميع أفراد الجوق ... واستمر يتمم بذكر الله
والصيام ... ثم رفع رأسه وقال :

— بقا فهتمم بلا قافيه تعملوا إليه في محطة سيدى جابر ؟ ...
تسألوا على بيت محمد بك قطبى ، زى اللى مكتوب فى
الورقة ... محمد بك قطبى من أعيان اسكندرية ، ألف من
يدلكم عليه ...

وفى هذه اللحظة صفر القطار فصاح الحاج محمد .

— هه ... يا جماعه ... مش لازمكم حاجه ؟ ...
فصرحت سلم الضريبة :

— حاج محمد ... يا حاج محمد ... لازمنا قلة ميه ...
فأجاب الحاج محمد منتهرا :

— قلة ميه إيه احنا فى رمضان يا وليه ... اتقى الله واختشى

على عرضك ...

فهزت نجية « الطباله » رأسها وقالت :

— حِكْم ... بقا الميه يا حاج محمد وإلا التعميره ؟! ...

فصاح الحاج محمد بغضب :

— تعميره إيه يا مره ؟ ... وحق صيامي ...

فقاطعته نجية :

— صيامك ؟ ... صيامك أنهوده يا روحى ... ما تقولش

كده امال ... دانا شايفاك بعينى الصبح فى إيدك الجوزه وقاعد

تكح وتنبر ! ...

وأراد الحاج محمد أن يتكلم فقاطعته الأسطى حميدة مغيرة مجرى

الحديث فضا للنزاع ... وقالت بعد أن غمزت « الطباله » نجية

بطرف عينها :

— الحاج محمد صايم ، زى مانا صايمه ... فضكم يا ولاد من

السيرة الغبره دى ... فضكم ... قطيعه ... آه ... حاج

محمد ... يا حاج محمد ... شوفى يا ختى ... نسيت أقول

لك .. يادى الحوسه ... الأرانب أمانة فى رقبتهك يا حاج

محمد ... ما تنساش ترمى للأرانب فوق السطح قشر

العجور ... أمانه عليك ... السيده في ضهرك ا ...
وهنا دق الجرس الأخير ... وعلا الضجيج من كل
جانب ...

وتحرك القطار بين صياح أفراد التخت :
— نشوف وشك في خير يا حاج محمد ...
وبين صياح الحاج محمد :

— مع السلامة ...

واختلطت هذه الأصوات بعضها ببعض ، حتى لم يعد في
مقدور الحاج محمد ولا غير الحاج محمد أن يميز كلمة « الأرانب »
أو جملة « نشوف وشك في خير » من بين هذه الأصوات
المختلطة ... ومع ذلك استمر في هذا الصياح الغريزي كل من
الطرفين ... كأنما كلٌ يصيح للصياح نفسه ، إلى أن ابتعد
القطار ... وعندئذ هدأ كل لنفسه .

جلس أفراد التخت برهة من الزمن فى سكون عميق ، كأنما
فراق مصر — ولو لمهمة قصيرة المدى — أدخل على نفوسهن أثرا
محزنا ووحشة مؤثرة .

لم يقطع هذا السكون القائم غير صوت سلم الضريسة
قائلة :

— يوه ... شوفى يا ختى نسينا نقول للحاج محمد يشتري لنا
دخان ... بقا هو بسلامته باكو السمسمون الى معانه حايكفى
طول النهار ؟! ...

فلم يجب أحد ... واستمر كل فى سكونه وإطراقه ...
وأخيرا رفعت الأسطى حميدة رأسها قليلا وتنهدت ثم قالت
بتأثر :

— يا حبيبتى يا مصر !! ...
وكان هذه الجملة كانت تعبر تماما عن إحساس الجميع ،
فأطرق الكل لحظة ...

ثم بدأ كل يرفع رأسه وينظر حوله ، ليرفه عن نفسه ...

فقلت سُلم العاجزة :

— كلها بكره ونرجع تانى لبلدنا ...

وقالت نجية « الطبالة » بابتسام وعيناها ترمقان المقعد التالى :

— وهى اسكندريه وحشه ؟ ... والنبي اسكندريه روح ...

وقالت فاطمة « الرقاصة » وعيناها كذلك ترمقان بدلال

المقعد التالى الملاصق :

— اسكندريه مريه ، وترايبها زعفران ...

وهكذا أخذ يسرى عن الجميع ... وتتلاشى آثار الوحشة ...

فعاد الصفاء إلى وجه الأسطى حميده ، وقالت :

— سُلم ... لفى لى سيجاره ...

تناولت سُلم علبة الدخان ، وجعلت « تلف » سيجاره ، بينما

أخذت الأسطى حميدة تلتفت حولها متصفحة وجوه المسافرين ،

ثم نظرت إلى فاطمة ونجية ، وقالت بتهكم .

— حسره وندامه على دول ركاب ! ...

* * *

أصابته الأسطى حميدة ... فى الواقع أغلب الركاب كانوا من
الصبايدة والفلاحين ... ومع ذلك فإن الأسطى حميدة ، بعيونها
الكحيلة ، لم تلمح خلفها أصحاب المقعد التالى الملاصق ...
أصحابه أربعة : ثلاثة أفندية ... ورابع يرتدى « بنش »
وطربوشا ...

وإذا أرادت الأسطى حميدة أن تعرف أكثر من ذلك فلتعلم أن
هؤلاء الأربعة من حين أن تحرك القطار لم يفتروا لحظة عن النظر
إليها ، وإلى هيئة التخت ، ما عدا سلم « العمياء » ...
وإذا أرادت الأسطى حميدة إفصاحا فلتسل عيون نجية
وفاطمة ...

لفت « سلم » السيجارة ، ثم دقت على صدرها قائلة :
— يوه ... يا ندامة الشوم .. ما معناش كبريت ! ..
وفى هذه اللحظة ظهر مفتش التذاكر ، ودق على جدار العربة
« بكماشته » وصاح :
— تذاكر قلوب ...

فصاحت سُلَم وهي تدير وجهها نحو مصدر صوت المفتش :
— حضرة المفتش ... ما معاكش كبريت ... إلهى ما تغلب
لك وليه !؟ ...

فأجاب المفتش ببرود :

— كبريت ايه ؟ ...

فقالت الأسطى حميدة متلطفة :

— ما تاخذناش ... بس نولع السيجاره ...

فقال المفتش بتحفظ ، وبغير أن يلتفت نحوهن :

— انتم فاطرين رمضان وإلا إيه ؟ ...

وكان قد وصل إلى المعقد التالى الملاصق فسرعان ما تتحنح

« لابس البنش » ورأى الفرصة سانحة للكلام فقال :

— الفطار مباح لأهل الحظ يا سيدنا المفتش ! ...

فلم يجب المفتش ... بل لزم بروده وتحفظه .. وجعل يؤدي

أعمال وظيفته بجد جاف ... إلى أن ابتعد ... فقالت الأسطى

حميدة :

— يا سم على ده مفتش ١١ ...

فردت فاطمة وهى تنظر إلى الأفندية أصحاب المقعد
الملاصق :

— يا ختى حقا .. ماله إنط كده ومتعنظ بعيد عنك ١٢ ..

فتتحنح « لابس البنش » وقال :

— ما هو اللى زى ده — من غير مؤاخذه — فاهم نفسه
الحكومة ...

فصادقت فاطمة على كلامه ... ثم أخذ الجميع ، « العوالم »
من جهة و « الأفندية » من جهة أخرى ، يتحدثون لحظة على
حساب هذا المفتش ... إلى أن قال أحد الأفندية :

— جرى خير .. الحمد لله ...

وقال الثانى بلطف :

— الكبريت معانا يا ستات ...

وزاد الثالث :

— ومعايا سجائر كان ..

ثم تنحنح « لابس البنش » وقال :

— حضرتكم نازلين فين .. ولو فيها رزالة ؟ ...

فردت سُلّم بسرعة كأنها مغتبطة بمعرفة هؤلاء الذين معهم

الكبريت والسجائر :

— سيدى جابر يا ادلعدى ...

فصاح الرجال :

— زينا بقا ... سكه واحده انشاء الله ... احنا نازلين

اسكندريه ...

وأضاف أحد الأفندية :

— الليلة بإذن الله نصلى التراويح فى سيدى أبو العباس ...

وتنحنح « لابس البنش » مرة أخرى ثم قال :

— أظن حضرتكم مسافرين فى فرح ؟ ...

فقالت الأسطى حميدة بعظمة وتفاخر :

— أيوه يا فندم .. فرح اسم الله محمد بك .. محمد بك ... إيه
يا بت يا فاطنة ؟ ...

فردت فاطمة بسرعة :

— محمد بك قطبي ...

فنظرت الأسطى حميدة إلى الأفندية وقالت :

— محمد بك قطبي ... من أعيان اسكندرية على سن

ورع ...

— أنعم وأكرم ...

وأردف أحد الأفندية :

— محمد بك قطبي ... أظنه راجل كبير ؟! ...

فأجابت سلم العاجزة :

— العريس ؟! ... لا وحياتك الا حته جدع خفة مشلين يشفى

العليل ! ...

فالتفت إليها نجيحة قائلة :

— أنت يعنى شفتيه ؟؟ ...

فردت سلم :

— الحاج محمد كان يقول العريس جدع صغار ...
وفي هذه الأثناء أخرج أحد الأفندية من جيبه علبة السجاير
وأدارها على أفراد التخت ، وقال وهو ينظر إلى فاطمة
« الرقاصة » :

— أظن الست الصغيرة هي التي حاتلم النقطة ؟؟ ...

فأجابت فاطمة بدلال :

— أيوه يا فندى ...

وقال آخر وهو ينظر إلى نجية :

— الست أمال إيه ؟ ...

فأجابته نجية بابتسام :

— دربكه يا فندى ...

وقال الثالث « لابس البنش » للأسطى :

— احنا من حق بدنا نتشرف بالاسم الكريم ...

فأجابت الأسطى حميدة بخيلاء :

— حميده المحلوية .. واسأل في حقة باب الخلق ألف من
يدلك ...

فقال الجميع با احترام :

— أنعم وأكرم ...

ثم قال أحدهم وهو يشير إلى العود :

— حضرتك بقا الأسطى العواده ؟ ...

فأجابت :

— أيوه يا فندم ...

فتنحج « لابس البنش » وقال :

— ما شاء الله ... ما شاء الله ... العود سلطان الطرب ... يا

سلام ! ...

وقال آخر :

— معلوم .. دا أبو المغنى والحظوظ ...

ثم صمت الجميع لحظة .. قطعتها سلم بقولها :

— يعنى ما حدش سألنى أنا رخره أبقى إيه ١؟ ...

فارتبك الرجال وخجلوا قليلا ، وتمتموا باعتذارات واهيه ..
ثم أراد أحدهم التخلص من هذا الموقف ، فأخرج من جيبه علبة
السجائر وأدارها من جديد على أفراد التخت ... غير أن سُلّم بعد
أن مدت يدها وتناولت سيجارة قالت عابسة :

— بس .. كتر خيرك يا فندي ... احنا ما نشربش غير
« سمسون » فرط ماركة الغزالة ! ...

وهنا كان القطار قد وصل إلى محطة قليوب ، فأبى الأفندي إلا
أن يشتري لسُلّم باكو سمسون من المحطة ..
ما غادر القطار محطة قليوب حتى كانت العلاقة قد
استحكمت تقريبا بين أصحاب المقعد التالى الملاصق وبين هيئة
التخت .. فتنحنح « لابس البنش » وقال :
— بقى يا أسطى حميده صلى على النبى ...
فقالت :

— اللهم صلى وبارك عليه ...
فاستطرد « لابس البنش » :

— بقا احنا ولا مؤاخذه ناس صايمين ، والصايم له الحق في التسالى ... والا أنا غلطان ١٩ ...

وأردف أحد الأفندية :

— والله تكسبوا فينا ثواب !! ...

— لأ ... وكان يبقى زكا عن فطاركم ...

فأجابت الأسطى حميدة وهى تزجج حاجبيها بعود ثقاب :

— صوتى مبحوح شويه ...

فقال « لابس البنش » :

— صوتك المبحوح ده سلطان الطرب ...

وقال أحد الأفندية :

— أنا عايز اسمع « فى العشق قضيت زمانى » لأن نعيمه

المصرية ...

فقاطعته الأسطى حميدة صائحة باحتقار :

— يا دهوتى ... نعيمه المصرية تعرف تقول « فى العشق

قضيت » !!! ...

(راقصة المعبد)

فقال الأفندى بخبث :

— ما أنا بقول كده برده ..

وهزت سلم رأسها ثم قالت :

— يا حضرة الأفندى اللى يسمعنا ما يسمعش نعيمه

المصرية ...

فأجاب الأفندى :

— أيوه ... ما هو أنا ناوى ما اسمعهاش ...

وصادقت الأسطى حميدة على قول سلم برأسها ثم صاحت

بحماس وخيلاء :

— قولى له ... قولى له أنا مين ؟! ... دا أنا حميدة الحلويه يا

مزغرطات ...

فصاح « لابس البنش » باحترام :

— مفهوم يا فندم ... ونعم ...

وفى أثناء حماس الأسطى حميدة التحدّر رأس « ملايتها »

بدون أن تشعر ، فظهر « الصفا » الذهبى البراق الذى يزين

شعرها ، كما ظهر منديل « الترتر » فى مقدم رأسها يخطف
الأبصار .. وتنبه الرجال إلى ذلك ، فأخذوا يختلسون النظر إلى
شعرها بين فترة وفترة ... ولاحظت ذلك منهم فاطمسة
« الرقاصة » فأسرعت بتنبيه الأسطى مخاطبة إياها باللغة
الاصطلاحية بين « العوالم » :

— اطسا ... يا اطسا ... أفصك نايب ...

أى « أسطى ... يا أسطى ... صفاك باين ... » .

ولكن الأسطى لم تسمع أو ترد أن تسمع ، متشاعلة بتزجيح
حاجبها بعود الثقاب ... ولاحظت نجية « الطباله » أيضا نظرات
الرجال إلى شعر الأسطى ، فسرعان ما انضمت إلى زميلتها فاطمة
فى تنبيه الأسطى :

— اطسا ... أفصك نايب ياختى ...

فلم تنبه الأسطى ... وانتبه أحد الأفندية إلى هذه الجملة

الغريبة ... فلم يفهم معناها ، وقال :

— اطسا ... أطسا دى فىن ؟ ... دى وجه قبلى ...

فقال « لابس البنش » :

— لأ لأ ... دول بيضربوا بالسيم ...

واشتدت حدة فاطمة لتغافل الأسطى حميدة ولنظرات
الأفندية لشعر الأسطى ، فصاحت بغیظ :

— ياختى ما تسمعى امال ... « أفصك نايب » ...

ورددت نجية كذلك بغیظ وغيرة :

— يا ختى الحقى ... أفصك باين ...

فانتبه أحد الأفندية وقال ضاحكا :

— أفص مين اللى باين ؟؟ ...

فاستدركت نجية بسرعة صائحة :

— يوه .. يا دهوتى ... شوفى ياختى ... قال بدى أقول

أفصك نايب ... قلت أفصك باين ..

ثم ضحكت ضحكة رنانة ... هى التى نهت الأسطى ،

تمت ونظرت إليها شزرا ثم قالت :

— هلبت انسختتى لما ترفعى الصهلولة كده فى وسط

ور ...

فقلت نجية :

— أصلى غلظت وانا بضرب بالسيم .. قطيعه ! ...
وعادت الأسطى حميدة إلى حاجبها وعود الثقاب ، فقال
« لابس البنش » بتوسل :
— يا أسطى حميدة ... أنا محسوبك الثقل على الصايين
حرام ...

فأجابت الأسطى بتيه و « دلع » :

— حاضر ... من عيني ...

فقال أحد الأفندية :

— « فى العشق قضيت » ...

فأجابت الأسطى بدلال :

— حاضر

فقال أفندى آخر :

— مش حاضر وبس ... لأ ... احنا محاسييك ...

فقال الأسطى :

— من عيني ... حاضر ...

فقال « لابس البنش » مشيرا إلى العود :

— العود ما هو جنبك ... أهو يا أسطى حميده ...

فأجابت « بتقل » :

— حاضر ... حالا ...

ثم نظرت إلى نجية وقالت بصوت يسمعه الأفندية :

— آه ... ياما روى بتشفشف على فنجان قهوه ساده ...

فقال « لابس البنش » :

— لك علينا يا أسطى حميده لما نوصل بنها ...

وقال أحد الأفندية منتهزا الفرصة :

— مش نسمع « فى العشق قضيت » يا أسطى حميده والا

إيه ؟ ... إحنا نرجوك رجا خصوصى ...

فأجابت الأسطى بدلال « وتقل » بنت « الكار » :

— حاضر ... امسكى الرق يا سُلم ...

ثم نظرت إلى فاطمة وسألتها همسا « بالسيم » :

— بت يا فاطنه ... بصى فى وشى ... هلبت ما حاجب
خفيف وحاجب تقيل ؟ ...

وفى هذه اللحظة حضر المفتش ، ليفحص تذاكر من ركب
من قلوب ... فقال لطائفة التخت بلهجته الجافة المتحفظة :
— ما زادش عليكم حد ...

فأجابته الأسطى حميدة وهى تخط حاجبها الخفيف بعود
الثقاب :

— ما زاد علينا إلا الخطوط
فأنصرف المفتش ، خشية أن تنقص هيئته بمزاح هذه
الطائفة ...

وما كاد المفتش يبلغ طرف العربة الآخر ... حتى دوى فى
العربة صوت هيئة التخت بأكملها مع الآلات جميعها من « عود
ورق ودربكة » :

« فى العشق قضيت زمانى
وهمى اليوم يكفانى
آه ... انظروا جسمى السقيم »
فوقف المفتش مبهوتا ، ووقف كل القطار على « رجل » ...
باريس — يونيو سنة ١٩٢٧

راقصة المعبد

ذكرى سالزبورج

صيف ١٩٣٦ .

ثعبان قد انساب بين الجبال والوديان ، تارة يصعد كأنه
يلاحق العصافير ، وتارة يهبط كأنه يرد الماء المنحدر من القمم ،
وتارة يسعى في نفق مظلم طويل كأنه يختفي عن أنظار
المطاردين ... ذلك هو القطار القادم من « سالزبورج » الذاهب
إلى « باريس » ... وكنت في مقعدى أحمل كتابا ولا أقرأ ، وأى
عين تستطيع أن تثبت على صفحة وفي القطار نوافذ ، وأمام طبيعة
ترقص ، أحيانا متجردة ، وأحيانا في أثواب عجيبة الألوان كأنها
« سالومى » فى رقصة السبع الغلائل الحريية ... شئ واحد
كان يفسد علىّ هذا البروى الإلهى : صوت الآلة الكاتبة
ينقر عليها مترجمى الفرنسى نقرات متصلة ، وقد خلع
سترته ، وشمر عن ساعديه ، كأنما القدر قد سلطه

على صفوى يكدره فى تلك الساعة الجميلة ... ولم أطق صبرا
فصحت به :

— كفى بحق رأسك اضطهادا لرأسى ... ألا ترى الطبيعة
أمامك كالراقصة القاتنة ، وأن نترك هذا يهينها ويغضبها ؟ ...
فأجاب دون أن يعنى بالنظر إلى :

— الطبيعة راقصة أندلسية ... ونقرى هو صوت الصفاقات
الخشبية فى أصابعها ...

ومضى فى عمله يصفر بفمه ... فقلت يائسا :
— وزاد علينا الصفير ! ... هذا « الزمار » غير « المسحور »
ما حاجتنا إليه الساعة ؟ ... لقد كنا اكتفينا منك
« بالصفاقات » ! ...

— تلك أغنية غجرية سمعتها فى فيينا ...
فنظرت إليه شزرا ، ولم أتمالك :
— غجرية ... أقسم لك بشرفك أننا نحن الغجر ... وهل
رأيت فوضى أعجب مما نحن فيه ! ... ما يقول عامل القطار لو أنه
رآك الساعة على هذه الصورة ؟ ...

— يقول إننا من رجال الأعمال ... لا من رجال الفن
المخاييل ... ينبغي أن تذكر أن الناشر في « باريس » ينتظر
مخطوطة كتابنا غدا ... والفصل الأخير لم يضرب بعد على الآلة
الكاتبة ... أليست فرصة سانحة أن نعمل في القطار والمقصورة
خالية ؟!

لم أنبس ... وملت بجسمي كله إلى النافذة أطلب الهرب
بروحي وفكري ... لكن الآلة الكاتبة بضجيجها ، كانت في
وجهي ، على المائدة الصغيرة المتحركة التي بيني وبين
صاحبي ... فنهضت ، وتركت له المكان ، واتجهت إلى نافذة
الممر في الجهة الأخرى ... فاستوقفني ! ...
— إنك لم تعطني عنوانك في « باريس » ...
— ومتى كنت أعطى عنواني أحدا ، في « باريس » أو في
غيرها ...

— وكيف أعثر عليك ؟ ...

— إياك أن تعثر عليّ .. إني في باريس أريد دائما أن
أكون مثل السمك في الماء ... فإذا كان للسمك في الماء

عنوان ، فإن لي في باريس عنوانا ... أريد أن ينطبق على قول
الشاعر « هنرى هاينى » :

« إن سألتك السمك في الماء كيف حالك أيها السمك ؟ ...
لأجابتكم . إني كهنرى هاينى في باريس ! ... » .
فرفع صاحبى يده عن العمل ونظر إلى مليا ...
— وأعمالنا هذه ؟ ... والناشر ... إذا طلب حضورك
للتوقيع على عقود ... أقول له إن عنوانك كعنوان السمك في
الماء ؟ ...

— هذا ما ينبغي لك أن تقوله بالضبط ...
فضرب « موريس » على مفاتيح الآلة الكاتبة ضربة أو
ضربتين ، ثم قال كالمخاطب لنفسه دون أن ينظر إلى ! ...
— أنا الذى كان يحسب أنك تنتهز الفرصة ، فترى في
« باريس » الأدباء الذين قرأوك ، ويتصورونك بخيالهم الأوروبى
رجلا ذا عمامة كعمامة « ابن سناء » ، ولحية كلحية
« عمر الخيام » ، وحریم كحریم « هرون الرشيد » ، يعج

بالجوارى الحسان ، والنساء ذوات العصائب والسراويل ...
آه ! ... ما أعجب منظرِك حقا بين الجوارى والنساء ... أنت
العدو اللدود للمرأة ؟ ... شد ما أنتم عليه !؟ ... إنك نبغض
المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يلهمك خير الكتب ... يا للنعمة
الزائلة ! ... هذه الكتب التى كان مقدرها لها أن تخرج من هذا
القلب النائم المتثائب ... كن على ثقة أن هذه الكتب كنا ننشر
بعضها تباعا فى المجلات الكبرى ، كما يفعل اليوم كُتَّاب العالم
المشاهير ، فتدر علينا الدنانير ... إنك أيها الكاتب الشرقى لا
تعرف كيف تؤكل الكتف ! ...

وقرعت سمعى الكلمة الأخيرة لجوعى وقتئذ فنظرت إليه
سريعا :

— أين هى الكتف ... وأنا أعطيك العهود والمواثيق ... أنى
أتعلم أكلها فى مثل لمح البصر ؟ ...

— أنا أدلك عليها ... أصغ إلنى ... لقد فاتنى أن
أخبرك : لحت منذ ساعة فى هذا القطار الراقصة البولونية

« ناتالى ... » التى ظهرت على أحد مسارح « باريس » منذ
عامين ، ورحلت إلى فيينا للاشتغال بالسينما ... إنها حقا ذات
جمال مخيف ... جمال يصعق للفور ..

فالتفت إليه مقاطعا :

— أتعتمد على هذه المرأة فى أن تلهمنى الكتب التى تدر علينا
الدنانير ... أم أنك تعتمد عليها فى صعقى للفور ؟ ...
— فى كلا الأمرين ...

— كن على ثقة أنه ما من كتب ستكتب ، وما من دينار
سيدخل جيوبنا ... إنما المؤكد الموثوق منه أنى أنا الذى سيصعق
للفور ... ولا مصلحة لك فى ذلك فأغلق هذا الباب أيها العزيز ،
ودعنا نظفر بسلامة الوصول ...

— ولكن السلامة لا تدفعك إلى الكتابة .. ينبغى أن تصهر فى
لهب الحب حتى يهبط عليك الوحى ...

— أسكت يا « موريس » وكفى سخفا ...

— بل إنى لجاد كل الجدد ...

فلم ألتفت إلى قوله ، فنظر إليّ يطلب الجواب ... فصحت :
— وإذا أكدت لك أنى اذ أقع فى الحب لا أستطيع أن أكتب

سطين ...

— إذا أحببت ، فإنك لا تستطيع أن تكتب !؟ ...

— مطلقا ...

— ومن الذى يكتب لك رسائل الغرام ؟ ...

— فى هذه المرة ليس أمامى إلا أنت ...

فتغير وجه « موريس » :

— أنا ؟ ... لا ... وألف مرة لا ... إذا كانت النتيجة أنى أنا

الذى ... لا يا سيدى العزيز ...

فابتسمت ، وعاد إليّ الاطمئنان ... فاستطرد الفرنسى :

— وأنت عندئذ ماذا تصنع ؟ ...

— أنا واقع فى الحب ...

فنظر إليّ محملا :

— وهل الحب بئر أو جب ألقى فيه مكتوف اليدين ؟ ...

— وما هو إذن ؟ ...

— أهو كذلك عندكم معشر الشرقيين ؟ ...

— لست أتكلم باسم الشرقيين ... ولكنى أقول لك أصالة

عن نفسى : إنه ينبغى لك أن تفهم أن الحب شيء ، والتأليف شيء آخر ...

وأدرت له ظهرى ، واتجهت إلى النافذة ، وطفقت أتأمل المناظر التى تمر بى فى تماسك وارتباط كأنها « فريسك » عظيمة رسمتها أيد سماوية على لوحة الفضاء ، إلى أن نبهنى رنين الصينية النحاسية يقرعها خادم عربة الأكل معلنا ساعة الشاى ... فنظرت إلى صديقى :

— الشاى يا « موريس » ... بطنى قد رقص طويلا « رقصة

الجوع » حتى خارت قواه ! ...

فلم يجب ... وأشار إلّى برأسه أنه باق للعمل ... فتركته

وأسرعت ، فقطعت دهاليز العربات على غير هدى ، أبحث عن

(راقصة المعبد)

عربة الطعام ، وأنا لا أذكر إن كانت في مؤخرة القطار أو في المقدمة ... وكانت سرعة القطار تدفع المار إلى الارتطام بالجدران ، وبالمسافرين الواقفين في الممر ، وأكثرهم من النساء النشاطات ، أضجرهن طول الجلوس ... فمضيت حذرا خائفا أن يحتل توازني فأقع على امرأة ، والويل لي عندئذ ، وإن كان من وراء ذلك : الإلهام ، وصنع الروايات ، وامتلاء جيب « موريس » بالدنانير والفرنكات .

وبينا أنا أجتاز عربة من العربات وقد بدا على الجهد : إذا رجل كهل أبيض الشعر ، في ثياب صفراء غير نظيفة كثياب عمال القطار ، يقطع الممر في نشاط عجيب . فما إن دنا مني حتى أرسل إليّ — من عينين صغيرتين خلف منظار سميك — نظرة باسمة ، فيها ألفة ، وفيها دعوة خفية إلى الكلام .. وغلب عليّ تحفظي وجهودي ، فلم أعبأ به ، وهممت بالإعراض عنه ، وسرت في طريقي ، فأسرع في أدب ولباقة ، ودفع أمامي باب العربة التي أريد اجتيازها ، وهو يقول في لهجة فرنسية

غريبة ، لكنها مفهومة ، وفي نبذة مرحة تنم عن خفة روح :

— ما زالت لدى كما ترى قوة الشاب ! ...

فابتسمت ، وسألته من فوري عربة الأكل أين موقعها ؟ ...
فلم يمهلى ، وخف أمامي يقودني إليها بنفسه ، ويفتح أمامي
الأبواب المعترضة بقبضته الصلبة وحركته النشطة ، حتى أشرفنا
عليها ، ولحت موائدها فانطلقت نحوها من فرط جوعى ...
وجهدت عيناى على أطباق الزبد وأوانى العسل ... لا أبصر غيرها
فى المكان ، ونسيت الشيخ الذى قادنى ، واستدرت بعد هنيهة
أنادى الجرسون كى يجلسنى فى موضع غير معجوز ، فألفيت
الشيخ بالباب ينظر إلتى فى ابتسامته الودية ، فأعرضت عنه ،
فتركنى ووقف مع الطهارة يحادثهم ، فتنفست ، وقلت فى
نفسى :

— « لو صاحبت هذا الرجل ذا الثياب الصفراء المرصعة ببقع
الزيت والغبار ، لكان جزاؤنا الطرد من هذه العربة ، فالخير فى أن
أتجنبه الآن إذا كان لى فى الأكل مطمع » ...

وأبطأ على الغلام ، فرفعت بصرى عن الزبد والعسل والخبز
المحمر ، وأدرته فى المكان أبحث عن مائدة ، فإذا الموائد قد شغلت ،
ولم يبق غير كرسى خال فى مائدة تجلس إليها سيدتان فى مقبل
العمر ، إحداهما ذات جمال مخيف حقاً ... ما أن وقعت عيناها
على عيني حتى أشحت بوجهى عنها كما يشيح الإنسان بوجهه عن
الشمس ... ووجدت عن يسارى مقعدا خاليا يجلس إليه رجل
من ثراة الأمريكان وزوجه ، فسقطت عليه كما يسقط العصفور
الذى أصابته عين الأفعى ، وهذا روعى قليلا ، ورفعت رأسى ،
فرايت الأنظار كلها مصوبة إلى هذه الجميلة ، وخيل إلى —
ولعل الأمر لا يعدو الخيال — أنه ما من واحد يجرو على الدنو من
المائدة التى عليها الجمال ، وخيل إلى أيضا أنه ما من عين تصمد
طويلا أمام هاتين العينين ! ... كهрман وذهب وعسل مصفى ،
مزجت ألوانها فخرج منها لون لست أدرى ما اسمه بين
الألوان : هو لون هاتين العينين ... وأقبل الغلام بأباريق

الشاي واللبن ، وصب منها في فنجانى ، ومضى ولم أبدأ بعد حراكا ... وبينما أنا على هذه الحال إذ عيناى تبصران في دهشة ذلك الشيخ ذا الثياب الصفراء قد عاد فدخل العربة ، ومشى بخطا ثابتة مطمئنة إلى مائدة الجميلة ، وجلس في المقعد الخالى إلى جانبها بغير تردد ولا اضطراب ... وما أن استقر به المجلس حتى ثبت منظاره على أنفه ، وأرسل إليها نظرة فاحصة هادئة ، فهالنى الأمر ، قلت في نفسى :

— « هذا الرجل مطرود مطرود » ...

وحانت من الرجل التفاتة إلتى وابتسم ، ففعلت وملت يوجهى عنه ... وبودى لو أصبح فى الناس قائلا :

— « أقسم لكم أيها الناس أنى لا أعرف هذا الشيخ ، ولم أره

قط فى حياتى » ...

غير أنى رأيت عجا بعد قليل :

ما كدت أجازف وأختلس النظر إلى تلك المائدة حتى وجدت

الشيخ يحادث الجميلة ، وهى تحادثه ، وقد أضاء السرور

وجهها فازداد إشراقا على إشراق ، وإذا هي تبسم وتضحك ،
وتغرق في الضحك ، فعجبت وقلت في نفسي :

— من هذا الرجل الذى استطاع أن يضحك الجميلة ولما يمض
على جلوسه خمس دقائق!؟ ...

واستغرب الأمر كذلك بعض الركب ، فنظروا إليه ... وجاء
الغلام فطلب إليه الشيخ سلة فاكهة غضة متنوعة ، فأنحنى له الغلام
انحناءة تدل على تقدير له ومعرفة لشخصه ... وكانت المرأة
الأخرى صامئة قد اتجهت بوجهها شطر النافذة ، وقد ظهر من
شأنها أنها لا تعرف الجميلة ، وأنها — على ملاحظة وجهها هي
كذلك ورشاقة قدها — يعيها جمود وصلابة ينان عن جنسها
الألماني ... ولكن ... لم يمض قليل حتى كان الشيخ قد أضحك
أيضا تلك الألمانية ، وأخرجها لينة طيبة من محيط نفسها
الجامدة كما يخرج الساحر البارع الكنز من مخبئه ، وإذا
المائدة قد دب فيها روح خفيفة لطيفة ، وإذا الجمال
الصامت قد تحرك ، وشقت منه تيارات مرحة فتنت

لب الحاضرين ... وإذا هذا المطعم الراكض يكاد يحس كأن
روحه النايضة تلك المائدة التي جلس إليها الشيخ بين
الجميلتين ... وتكاد هذه العربية تشعر من فرط المرح بخفتها عن
بقية العربات ، وبرغبتها في الارتفاع والرقص بمن فيها فوق « الخط
الحديدى » ...

جرت في أمر هذا الرجل العجيب ، وقد نزل من نفسى منزلة
الاحترام ... وصحت من أعماق نفسى :
— « إن هذا إلا أستاذ عظيم » ...

ومنذ تلك اللحظة جعلت همى أن أترضاه ، فاكثرت النظر إليه
متربصا به ، علنى أصيب منه فرصة ، غير أن الخيث — وقد أدرك
ما بى — لم يعطف على بنظرة ، ولم يحفل بأمرى ولم يمل
بوجهه ناحيتى قط ... ولم أقنط من رحمته ، وجعلت
أتابعه بنظرى وسمعى ، وأراقبه وهو يحدث الجميلة بالفرنسية
فتضحك ، ويداعب الأخرى بالألمانية فتضحك ، وأنا لا
يضحك قلبى ولا يتهيج ، بل يمتلئ حسرة ويأسا وخوفا أن يعن

هذا الرجل فى تعذيبى بهذا الإهمال ، وفى يده الآن مفتاح سعادتى
وشقائى ... وأراد أخيرا أن ينادى الجرسون ، فوقعت منه على
نظرة عابرة ، فأسرعت بقلب واجف وأمل متجدد ، وابتسمت
له ، وانحنيت برأسى تحية له واحتراما ، ولكنه ازور فى الحال
بوجهه عنى ، كأنه لا يعرفنى ، وكأنه لم يرنى قط فى حياته ...
فهمست فى أعماق نفسى على حال كسيرة ويأس أليم وغيظ
محرق :

— « أيها الشيخ الملعون ... عملتها وانتقمت لنفسك شر
انتقام » .

ومضت لحظات لست أدرى ما حدث فيها ، غير أن فنجانى
ظل على حاله ، لم أرشف منه سوى مرة أو مرتين ، والزبد
والعسل والخبز المحمر لم أضع يدى فى طبق من أطباقها ،
ولم يبق منى إلا إنسان جالس لا حراك به ، ينتظر فتات
النظرات من مائدة الجمال ... ولعل هيئتى كشفت للرجل
عن دخليتى ، وكأنما أدركته بى شفقة ، وكأنما أحس أن الدرس

الذى أعطانيه قد أثمر ... فإذا هو فجأة قد أقبل على بوجهه ،
ونظر إلى نظرة صريحة باسمه ردت الروح إلى جسدى ... وفى
لباقة غريبة ، وبمناسبة لست أدري كيف أوجدتها ، وجه إلى
الكلام فى جو من الألفة ، نسج خيوطه للتو ، حتى كاد
الحاضرون وكدت أنا نفسى أعتقد أن المعرفة بيننا قديمة العهد قوية
الأسباب ، دون أن أدري أو دون أن أذكر :

— إنك قادم من « فيينا » ؟ ...

قالها الشيخ بفرنسيته الغريبة المفهومة .. فأسرعت

بالجواب :

— لا ... بل من « سالزبورج »

— حيث المهرجان الموسيقى ... شأنك إذن شأن السيدة ...

قالها الرجل مشيراً إلى الجميلة ، ثم إلى فى حركة لبقة هى أبلغ
من التقديم ، وإذا هى تقبل على فى نظرة المتسائل عن أمر
حضورى المهرجان ... فتعلقت بأذيال هذه النظرة ،

ونفضت من مقعدى فى الحال كمن وخز بإبرة ، وذهبت إليهم
وجلست فى المقعد الرابع الخالى إلى جانب الألمانية ، وأنا أقول فى
نفسى :

— « إن فاتتنى هذه الفرصة فموت مثلى خير من
حياته ! ... » .

ونظرت إلى الجميلة أمامى وإلى الشيخ الجالس بجوارها .
وقلت على عجل :

— سيدتى حضرت كذلك للمهرجان ؟ ..

— نعم ... كان بديعا ... ألا ترى ذلك ؟! ...

— وأى إبداع ! ... لقد أمرضنى المطبخ التمسوى ورمى
معدتى بالداء ، فشفتنى الموسيقى التمسوية ووجدت فيها
الدواء ...

فقال الشيخ باسمه :

— إذن لقد خرجت من المهرجان لا لك ولا عليك ! ...

فضحكنا ... وقلت للشيخ :

— لقد خرجت مع ذلك بشيء لا يقوم بمال : مشاهدتي أوبرا
« أورفيوس وإيردويس » للموسيقى « جلوك » ...

فنظرت إلى الجميلة في دهش :

— أليس كذلك ؟! ... حقا .. إنها كانت أعجب وأبدع ما
عرض هذا العام ... إني أدهش كيف أن هذه « الأوبرا »
المعروفة بما فيها من إملال للنفس ، قد انقلبت تحت عصا
« برونوفالتر » شيئا يسحر القلب ... لقد جعل منها قطعة
« باليه » راقصة طائفة ، كأنها من تأليف الملائكة ... أتذكر
منظر الجحيم ومنظر الفردوس ... ما أبدعه
« كوريجرافي » ... !

— يخيل إلي يا سيدتي أن « جلوك » كان قد وضع قطعه
لتؤدي على هذه الصورة الراقصة ، لا لتغنى كما تغنى بقية
الأوبرات ، لقد قالت مثل هذا القول الراقصة العظيمة
« إيزادورا دونكان » وهى أعرف الناس فى نظرى « بجلوك »

... ماذا تراها كانت تقول لو رأيت اليوم « أورفيه » كما عرضت
هذا الصيف في « سالزبورج » ؟ ...
فقالته الجميلة:

— رأيت « إيزادورا » ؟ ...

— رأيتها مرة منذ عشر سنوات في رقصتها الأخيرة ... وفي
اليوم التالي نشرت الصحف خبر موتها الفظيعة في « نيس »
مخنوقة في غلالاتها الحربية ... لقد تواطأت على قتلها تلك الغلالة
التي طالما رقصت بها ، مع الهواء الذي طالما أحبت الرقص تحت
جناحيه ! ... لقد حزنت عليها وقلت في نفسي :
— شاء القدر ألا تموت حتى أراها ، وترى لعيني الستار عن
عالم رائع كنت أجهل وجوده من قبل ... وأأسفاه عليك يا
« إيزادورا » ! ...

وعندئذ قطع الشيخ الحديث وهو ينظر إلي :

— يخيل إلي أنك أنت أيضا يا سيدى من رجال الفن :

موسيقى ؟ ... مصور ؟ ... شاعر ؟ ... روائى ؟ ...

فقلت له باسمي :

— صدقت فراستك ... أنا من أولئك نفر الذين خلُقوا كي

يملئوا الدنيا كذبا وتمويهها ...

فقال الشيخ للفور :

— إن أردت الحق ، فكل رجال الفن في الكذب سواء ...

ولكنني أحسب الروائى أطولهم باعًا وأملأهم جعبة ...

— سيما وإن كان شرقيا من صلب مؤلفى « ألف ليلة

وليلة » ...

فقالت الجميلة وهى تنظر إلى باسمي :

— يسرنى حقا أن أرى كاتباً من سلالة تلك الفئة العجيبة ...

ولكنني لا أحب أن تسمى فنك كذبا ... إن الكذب المتسق هو

أصدق من الصدق ... ما الفن إلا كذب متسق جميل ...

فرفعت عيني إلى السماء ، وقلت في شبه دعاء إسلامي :

— اللهم نسق لى كذبنى ! ...

فضحكت الجميلة وضحك الشيخ ، وحتى الألمانية ضحكت
من منظر كفى المرتفعتين إلى السماء ، على نحو لعلها ما رآته إلا في
الأفلام السينمائية التي تمثل الصحراء والبدو من المسلمين ...
وكانت الألمانية قد فرغت من تناول الشاي ومحاسبة الغلام ،
ورأت الحديث يدور بالفرنسية التي لا تعرفها ، فنهضت وحيثنا
بإشارة من رأسها تحية سريعة ، وانصرفت إلى عربتها ، وتركنا
نحن الثلاثة في ضحكنا وابتسامنا وسرورنا ... وكان مقعد الألمانية
أمام الجميلة وجها لوجه ، وعن يمينها النافذة البلورية ، فبادرت
وانتقلت إلى مقعدها الخالي ... وأنا أقول للشيخ :

— وأنت يا سيدى ... هل كنت معنا في

« سالزبورج » ؟ ...

— لا ... مع الأسف ... إني قادم من « إنسبروخ » حيث
كنت طول وقتي أتسلق الجبال ، ولم أزل كما ترى بثياب
التسلق القذرة .. إني من قداماء المتسلقين الهواة ... لذلك

أعترف لك أن الموسيقى التي تهز مثلي هي موسيقى الطبيعة ...
— هنيئاً لك يا سيدى هذه الموسيقى ... ومَن غير الموهوب
يستطيع أن يتذوق « سائفونيات » الطبيعة الصوتية الضوئية في
آن ؟ ... ما الفن إلا سفير بيننا وبين « الطبيعة » يصف لنا
« بلاطها » وما فيه من أبهة وبذخ وعجائب وأسرار ...
فلمعت عيننا الجميلة ، وقالت كأنها تتخاطب نفسها :
— الفرق بين الفن والطبيعة في الرقص ، كالفرق بين
« بافلوفا » و « إيزادورا » ...

فحدقت فيها ، وقد أخذني الدهش :
— ملاحظتك يا سيدتى غاية في الصواب ... وإن كان علمي
بفن الرقص غير غزير .. نعم .. عند « إيزادورا » الإنسان
في الطبيعة شأنه — سواء بسواء — شأن الزهرة في
المروج ، والشجرة في الغابة ، والسنبلة في حقول الحنطة ...
له رقصته الطبيعية ، وله تموجاته المتسقة مع الهواء

العابث بشعره المرسل الطائر ... فهو في غير حاجة إلى تقليد
« موت البجعة » أو « مشية العصفور » ...
فقلت :

— ولكن الفن مع ذلك هو الجمال المصنوع ... إن من
فضائلنا — نحن الآدميين — أننا استطعنا أن نصنع الجمال في
معاملنا البشرية ... ولم نكتف مثل بقية عناصر الطبيعة بأن ننتظم
نغما في نشيدها العام وحركة في رقصتها الكبرى ...
فقلت لها على الفور :

— أنت تحبين « بافلوفا » ...
فأجابت باسمه :

— وأنت تحب « إيزادورا » ...
فصاح فينا الشيخ بغتة :

— مهلا ... مهلا ... وأنا أحب من ... ؟ أتوزعان فيما
بينكما « الأحبة » وتركانى بغير « حبيب » ؟! ...

فبرق في رأسي خاطر ، وتذكرت من فوري حديث صاحبي
الفرنسي عن الراقصة البولونية ، وأيقنت من كلام الجميلة في
الرقص ومن جمالها « المخيف » أنها ولا ريب هي ...
فأسرعت وأجبت الشيخ باسماء وعيناي إلى الفاتنة :
— أنت تحب « ناتالي ... » .

فتلون وجه الفاتنة على نحو أدركت معه أنني في حضرة
الراقصة ... والتفت الشيخ إلى جارته قائلاً في لباقة وكياسة :
— لو أذنت أن أكون من عبادك المعجبين ! ...
فأسرعت قائلاً للشيخ في ضراعة :

— مهلاً ... لا تتركني ... خذني معك أنا أيضاً عبداً من
العباد الخاضعين الساجدين ...

فضحكت الجميلة ضحكة رقيقة كشفت عن ثغر لؤلؤي أثنى
من كنوز سليمان ... وقالت :
— أتحبان الرقص بهذا المقدار ؟ ! ...
فقلت من فوري :

— وكيف لا نحبه يا سيدتى والكون كله رقص ... إن
المجموعة الشمسية فى دورانها الأبدى ليست إلا رقصة
« باليه » ! ...

فقال الشيخ فى تنهد المشتاق :

— كم ترى ثمن الكرسي لمشاهدة هذا « الباليه العلوى » ؟
فقلت باسمما :

— أقل ثمن للحضور فيما أعتقد « حياة » الإنسان ...
فقال الشيخ باسمما :

— تقصد ولا ريب بأقل ثمن : « أعلى التياترو » ! ...
فضحكت الجميلة وقالت :

— ليس الثمن باهظا على أى حال ... على شرط أن يسمع لنا
برؤية هذا المشهد العجيب ! ...

فقال الشيخ :

— اطمئنى يا سيدتى ... قلبى يحدثنى أن كراسينا

محجوزة مقدما ، من قبل أن نولد لمشاهدة هذه الحفلة ... وكل ما أرجو أن نوضع نحن الثلاثة في مقاعد متقاربة كما نحن الآن ... حتى نتبادل الآراء فيما نشاهد ، كما نتبادلها الآن ... ينبغي إذن أن نتعارف من الساعة حتى لا يضل أحدنا عن الآخر ... أسمحان ؟! ...

وأخرج الشيخ من جيبه محفظة تناول منها بطاقة ، وفعلت عندئذ فعله ، وكذلك فعلت الجميلة ، وتبادلنا البطاقات ... وعلمت أن صاحبي الشيخ من أصحاب المصانع الموسرين في بوخارست ، وأن الجميلة هي حقيقة « ناتالى ... » وأردت أن أحيى هذا التعارف بزجاجة من الشمبانيا ، فناديت الغلام وطلبت إليه ذلك ، فاعترض الشيخ محتجا في ظرف أن هذا الواجب من نصيبه ... ثم اتفقنا آخر الأمر على أن ندعه يفعل ما يشاء في العشاء ... وجاءت الشمبانيا في وعائها الفضى محاطة بالثلج ... وفض الغلام خاتمها ، ومنأى الكؤوس ، وما كدنا نرفعها إلى الشفاه حتى دخل صاحبي

« موریس » عربة الأكل ، ووقع نظره علىّ في الحال وأنا على هذه الحال ، بين جمال باهر وشراب فاخر ، ونعيم ليس بعده نعيم ، فارتسمت على فم الملعون ابتسامة أدركت لوقتي معناها ، ولم يمهلني حتى أتدبر أمرى معه ، ودنا حتى بلغ مائدتنا ، فأنحنى أمامى باحترام وقال :

— سيدى « عدو المرأة » لم يصعق بعد على الفور ؟!...
ثم اعتدل واستدار ، ورجع من حيث أتى ... كأنه كان قد جاء ليلقى هذه الكلمة ويمضى ...
وبدا الدهش على وجه الجميلة والشيخ ، وكأن أعينهما تسأل عن معنى ذلك ...

ولم أر بدا من الإفصاح ... فقلت :
— هذا رجل يرى ألا نفع لى ولا فلاح إلا إذا صعقنى حب امرأة ! ...

فصاح الشيخ :

— وحق هذا الشراب المقدس إن الرجل قد صدق ! ...

ونظرت إلى الجميلة باسمه :

— ولكنه قال أيضا : إنك « عدو المرأة » ...

فأردت أن أشير بالإيجاب ، فبادرني الشيخ مقاطعا :

— أياك أن تكفر في حضرة الجمال ... أأست معي من العباد

الصالحين الخاضعين ؟! ...

فقلت في شيء من التمرد :

— إني أحب الجمال وأكره المرأة ...

فقالت الجميلة في هدوء وابتسام :

— لماذا تكرهها ؟ ...

— أأكون صريحا ؟ ...

— نعم ...

— لأن المرأة يا سيدتي مخلوق ... ماذا أقول ... أرجو

عفوك ... إني كلما تذكرت أثرة المرأة وظلمها ومنطقها

الغريب ... إليك يا سيدتي مثلا بسيطا ... ما جرى في تلك

القطعة الموسيقية التي شهدناها ... لقد رأينا «أورفيوس» المسكين

في الفصل الأول ييكي على قبر زوجته « إيروديس » ويستبكي
الآلهة بالحنان الحزين وقيثارته الشجية ، حتى أذنوا له أخيرا
بالبحث عنها في الجحيم والفردوس ... إلى أن وجدها ... وأراد
الخروج بها إلى الدنيا ، فلم تأب عليه الآلهة ذلك ، على شرط ألا
ينظر إلى وجه زوجته « إيروديس » قبل أن يجتازا مملكة الموت ،
وإلا بقيت زوجته إلى الأبد في مملكة « بلوتون » ، وتذكرين يا
سيدتي بعدئذ كيف أن تلك المرأة قد نسيت كل ما فعل زوجها من
أجلها ، وأنها عاتبته مُر العتاب ، لأنه « فقط » لم ينظر إلى
وجهها ... وما زالت به حتى أنسته وعده ، ونظر إليها ،
فسقطت لوقتها ، وعادت روحها إلى مملكة الظلام ... فبكي
الرجل من جديد ، واستبكي ... إلى آخر القصة ... ولو كنت
في مكانه لتركت هذه المرأة وشأنها ...

فسددت إلى الجميلة نظرة فاترة ألفت الاضطراب في

« جهاز » عقلى ... وقالت فى نبرة عذبة أتت على البقية الباقية
منى ...

— ما أقسى حكمك ! ...

فقلت كمن يتقى سلاحا مصوبا :

— بالله لا تسلطى علينا الجمال يا سيدتى ... إنه فى أيديكن
كالخالب فى أيدي القطعة ... تبرزنه وقت الزوم ... من أجل هذا
أكره المرأة ...

وكأن الشيخ لم يطق سكوتا ، فقال فى صوت المتوسل :
— لا تكره المرأة يا سيدى العزيز ... إن المرأة الجميلة كالزهرة
النضرة ... كل شئ فيها جميل ، حتى شوكتها ... إن الجمال لا
يتجزأ ... إنه الجمال وكفى ... إن الجمال هو فضيلة المرأة ...
بل هو الفضيلة وكفى ...

فأجبت الشيخ فى صوت المغلوب على أمره :

— لقد نختنى يا سيدى ... وفنت فى عضدى ، وخذلت
جنسنا ، وظهرت الجنس الذى يقال إنه لطيف ، وهو فى

غير حاجة إلى دفاع ... إن المرأة لا تدافع ... إنها تهاجم
وتصعق ... آه من الجمال ... المرأة الجميلة هي القوة وكفى ...
هي الصاعقة وكفى ...

وأخرجت منديلى كأنى أريد أن أجفف عرق الاندحار ...
فضحكت الجميلة وقالت :

— لا يبدو عليك مطلقاً أنك صعقت ...
— وماذا تريد يا سيدتى أن يبدو علىّ ؟ ...
— لست أدري ... لكن ... ؟

— لا أكتمك يا سيدتى أن فى رأسى « مانعة » للصواعق ...
كتلك القطعة من الحديد التى توضع فى رؤوس البيوت ... هو
مبدأ قد رسخ فى ذهنى :

إن حرىتى أئمن عندى من روحى ... وإن المرأة وحدها هى
أخطر عدو يهدد هذه الحرية ... فالمرأة يا سيدتى هى
السجان .. الدائم لنا نحن الرجال ... نتخبط بين جدران
بطنها ونحن أجنة ... نطعم ما تريد هى أن تطعمنا إياه ...

فإذا خرجنا من بين تلك الجدران المظلمة إلى الحياة المضيئة
الرحبة ، وقعنا بين سياج حجرها ، تغذى أفهامنا بما تريد هي أن
تلقننا إياه ... فإذا اجتزنا بالكبر تلك السياج تلقننا أغلال ذراعيها
فطوقت أعناقنا حتى الممات ... فمتى الخلاص منها ؟ ... ومتى
الحرية ؟ ...

فابتسمت المرأة ابتسامة لها فعل الكهرباء :

— ألم أقل لك ... إنك لم تصعق ! ...

فصاح بى الشيخ :

— سيدى العزيز ... سيدى العزيز ... أتوسل إليك فى

خضوع أن تخرج من رأسك تلك الحديدة ! ...

فتنهدت وقلت :

— وما حظك من أن تعرضنى للخطر؟ ... يا إلهى اشهد! ...

لقد اصطلحت على الأسباب هذه الليلة لإضاعتى ... إن

« الحديدة » يا سيدى قد صهرت ... ومتى كانت صاعقة

الجمال يردها حديد أو خشب ؟ ... إني قد صعقت ... إني

قد صعقت ... إني قد صعقت ... أما تزال سيدتى مصرة على أن
هذا لا يبدو عليّ ١٩ ...

فأجابت الجميلة في ضحكة رقيقة :

— داؤك غير خطير ...

وكان القطار قد مر ببحيرات زوريج الرائعة فنظرنا كلنا إلى
تلك الجبال الشاهقة الخضراء ، كأنها مرده عمالقة في أبراد
حضرمة ، يلعب تحتها الماء الأزرق الهادئ كأنه يداعب أقدامها
العارية ... وغمرنا الشعر المحيط بنا فأنسانا أنفسنا ...
فلم نفق إلا على حركة الغلام وهو يرفع عن مائدتنا الأطباق
والأكواب ... فالتفتنا ، فإذا عربة الأكل قد خلت من
الركاب ، ولم يبق غيرنا ، وقد مضت ساعة الشاي منذ
وقت ليس بالقصير دون أن نحس مرّها ... وبدأ السقاة
والغلمان يهيئون الموائد تأهباً للعشاء ... فنهضت الجميلة في الحال
في خفة العصفور إذ يقفز من غصن إلى غصن ... واستأذنت في
العودة إلى مقصورتها ، ووعدت باللقاء عند العشاء تلبية

لرجاء الشيخ ... وذهبت عنا كأنها الشمس التي غابت وقتئذ
خلف الوديان ... فتركنا في ظلامين ... ولبثت أنا والشيخ
صامتين مطربين ، كأننا نخشى الإفاقة من سحر تلك اللحظة ...
غير أني تكلمت على الرغم مني في صوت ضعيف كأني أخاطب
نفسى :

— دأى غير خطير ...

وسمع الشيخ منى وفطن لى ، فالتفت إلى قائلا :

— أوقعت ؟ ...

فخرج من فمى الجواب دون أن أشعر :

— نعم ...

وانتهت لنفسى فرأيت الشيخ يحدق فى وجهى ... فاستهولت
الأمر ، وسرت فى جسمى رعدة ، وخشيت على نفسى ... وإذا
الشيخ يقول فى صوت هادئ مطمئن :

— اعتمد على ! ...

— أعتمد عليك فيماذا !؟ ..

فنهض ومد إلتى يده وصافحنى ضاغطا على يدى ، وهو يقول
فى صوت حار :

— إنى أفهمك وكفى ... إلى الملتقى فى العشاء ...

ومضى فى حركته النشطة ، وأنا أنظر إليه ، ولا أدرى ما أفعل
ولا ما أقول ، حتى غادر عربة الأكل واختفى عن عيني ... وثبت
إلى رشدى ورأيت نفسى وحيدا فى المكان بين الطهارة والسقا ،
فانصرفت إلى مقصورتى وأنا شارد الفكر ضائع اللب ...

جلست فى مقعدى صامتة دون أن ألقى نظرة على
« موريس » ، ولا أذكر ماذا كان يصنع وقتئذ ، لعله كان يراجع
أو يتظاهر بمراجعة فصله ... ورأيت نفسى فى حاجة إلى أن أخفى
عنه أمرى ... فتناولت كتابى ، وفتحته حيثما اتفق ، ودسست
وجهى فيه ، ومضت لحظة لم أع فيها ما حولى ، فقد غاصت
نفسى فى القرارة السحيقة من نفسى ، كما تغوص

القوقعة فى أعماق صدفها ، وإذا بى أسمع همهمة ، كأن أحدا
يغالب الضحك ولا يستطيع كتمانها ، فرفعت عينا حريصة
مستطلعة خارج الكتاب ، فرأيت الخبيث « موريس » يهتز
كالرجل بالضحك المحبوس ... فقلت له فى هدوء مصطنع دون
أن أبسم :

— أعط نفسك راحتها ، وأفرغ هذا الوعاء الممتلئ هذرا
وسخفا ! ...

فما توانى ... وفتح عقيرته بقهقهة صريحة ، وهو يقول :
— شتان بين وجهك الذى ذهبت به ، ووجهك الذى تعود
به الآن ! ...

فقلت فى فتور وبرود :
— ما الفرق ؟ ... أذهبت حليقا وعدت بلحية بيضاء ؟ ...
— بل ذهبت هادئ البال ... وعدت مسلوب البلبال ...
فلم أطق صبرا :

— ... كى ترضى وتطمئن ، هذا ما كنت تتمناه من صميم

قؤادك ... ما زلت بى حتى طرحتنى أرضا ... لكننى أقسم
بشرفك ثلاثا ...

— كفى قسما بشرفى ... أقسم بشرفك أنت مرة
واحدة ! ...

ولم أر فائدة من الكلام مع « موريس » ، ولم أجد فى نفسى
ميلا إلى الجدل والحديث ، فغادرت المكان وخرجت إلى المر
يشيعنى الفرنسى بضحكات مرحة ، وهو يفرك يديه سرورا
وجذلا ، كأنما الحال والأعمال سائرة على خير ما يرام ... أو كأنما
يرقص فى جيبه « شيك » سخى الأرقام ... وابتعدت عن
مقصورتنا ... وأسندت جبينى إلى زجاج من نوافذ الممر ،
وجعلت أفكر فيما حدث ... إنه الجنون ... أى مطمع
لى فى هذه الراقصة الفاتنة ... إنها على مقدار من التواضع
ونبل الخلق فيما أرى ... لكنها متى هبطت « باريس »
أحاط بها الفنانون والظرفاء والأثرياء ... وبعد ...
فماذا أريد منها على وجه التحقيق ؟ ... هذه مسألة

ينبغي أن ألقى عليها الضوء في أنحاء نفسي ، وألا أتركها مبهمة
غامضة ... ما حقيقة شعوري نحوها أولا ؟ ... كلا ... هذا
سؤال يدل على الحمق ... إن كان الأمر متوقفا على الشعور ، فإنني
الآن أحس أني لا أرى في الحياة عسلا ولا وهجا إلا في عيني هذه
المرأة ...

ترى ما مذهبا في الرقص ؟ .. وبكم أبتاع ليلة ترقص لي فيها
وحدى بين جدران أربعة ؟! ... إن المرأة سجاننا الدائم ... اللهم
إني مغفل ! ... اللهم إني أقبل السجن مع هذه المرأة بين جدران
لا تهدم وفي أغلال لا تحطم ! ... إن الحياة خارج مثل هذا السجن
هي السجن ... لكن ... معذرة ... هذا كلام فتى في
العشرين ... وأنا اليوم لست في العشرين ولا في الثلاثين ...
وليست هذه المرة الأولى التي ... آه للقلب ! .. إنه لا يعرف غير
لغة واحدة ... إنه إذا استيقظ غنى عين الأنشودة بألفاظها
وأنغامها ، غير حافل بصغر أو بكبر ، كأنه « أسطوانة » غناء ، إذا

مستها الإبرة صاحت بما كانت تصيح به في كل حين ... وأنا الذى
كان يحسب أن أسطوانة قلبه قد غيرت أنشودتها ... مستحيل ...
إن الصوت قد يفعل فيه القدم فيضعف ويهت ... ولكن الأغنية
هى دائما الأغنية ...

كل ذلك صحيح ... ولكن هذا العقل الساكت أما ينبغي له
أن يتكلم؟! ... أيها الربان المحترم الذى يدير هذه السفينة الثملة ،
ما بالك قد انزويت فى « قمرتك »؟! ... كأنى بك تحتسى أنت
أيضا كؤوسا من « الشمبانيا » تاركا السفين يلعب فى يد
المقادير ... أريد منك الجواب عن سؤال واحد : ماذا تريد أو ماذا
ينبغى لنا أن نريد من هذه الجميلة ... لست تدري ؟ ... هذا لا
يدخل فى دائرة عملك ؟ ... واعجباه ! ... إن العقل أيضا قد
ثمل ... هنالك صوت داخلى مع ذلك يهتف بى ألا أحاول شيئا وألا
أطمع فى شيء ، وأن أمكث فى مكانى لا أذهب إلى العشاء ...
نعم ... لا يجب أن أذهب لمقابلتها فى العشاء ، إذ ... ما
الفائدة ...

ودوى فى العربات رنين الصينية النحاسية ، فلم أتحرك من
موقفى ، على أن رفضى رؤيتها على هذه الصورة أمر لم يتم لى إلا
بعد حركة قمع دامية ، قمت بها داخل النفس المتمردة ... لقد
أقنعت نفسى أن الانتصار الحقيقى هو دائما فى كلمة « لا » ...
لقد انتصرت إذ لم أذهب حيث كانت تنتظرنى ... لكن
عفوا... من قال إنها تنتظر؟ ... ما هذه الألفاظ التى نسبها أحيانا
على مواقف عادية هى غاية فى البساطة؟ ... وما هذا الانتصار
الزعموم؟ ... وعلى من تراه وقع؟ ... عليها هى؟ ... أغلب ظنى أنها
لا تشعر به ولا بى ... أما إن كان على نفسى فنعم ... وانتصارى
على نفسى ما قيمته على الأقل فيما نحن فيه الآن؟! ... آه من هذا
الانتصار فى الهزيمة! ... هذا الذى لا يعرف غيره الأدباء
المساكين ! ... وطفقت أنسج على هذا المنوال خيوطا واهية من
الخواطر ، لا نفع فيها إلا إضاعة الموعد على ... ومضت ساعة فيما

يخيل إليّ وأنا جامد في موضعي ، ولم أفق إلا على صوت خلفي
يهتف باسمي ، فالتفت فإذا الشيخ يشدد نحوي صائحا بي :
— لقد قلبت القطار ...

— قلبت القطار ؟ ... هذا القطار الذي نحن فيه ؟ ...
— بحثا عنك ... أين كنت ؟ ... ولماذا لم تظهر ساعة
العشاء ؟ ...
— آه ... إني آسف حقا كل الأسف إذ حرمت نفسي ...
لكن ...

— لا بأس ... إني أفهمك ...
قالها الشيخ في نبرة الواثق وصوت المجرب المعاني ...
وخامرتني الرغبة في أن أستزيده أيضا ، وأن أعرف على أي
وجه قد فهمني ... غير أنه عاجلني قائلا :
— إن غيبتك قد أقنعت الجميلة بأن داءك على شيء من
الخطر ...

— دأى ...

ورفعت يدي أجس صدرى وقلبي وكبدى ... وقد كاد
يدخلنى اليقين أن قد نزل بى مرض حقيقى ... ومضى الشيخ
يقول وهو يهش لى :

— اطمئن ... لقد استنزلنا عليك عطفها ...

— ماذا أسمع منك ؟ ... مد الله فى عمرك وأطال لنا بقاءك ولا
عدمناك نصير البائسين اليائسين ... ولكن بحق شرفك عندى إلا
ما أخبرتنى وزدتنى ... متى كان ذلك ؟ ... وكيف ؟ ...
متعك الله بالصحة والشباب والنشاط ...

وأخذتنى نوبة عصبية من الفرح ، فاستنزلت على الشيخ كل
ما فى السماوات من خيرات ، وما فى الجعبة من دعوات ...
فاقترب ... منى باسم ... وهمس فى أذنى وهو يغمز بعينه :
— هى لك ...

فتعجبهم فى الحال وجهى ، ورميت الرجل بنظرة قاسية :
— لا تمزح يا شيخ ...

فابتسم الرجل وقال :

— إنك لا تصدق ... ويحق لك ألا تصدق ... فهذه المرأة
على جانب كبير من الخلق والثقافة والذكاء ... وليس ما بها خفة ،
ولا تبذل ولا حاجة إلى مال ، وإنما هو حب استطلاع فيما أرى ،
وقد خدمك الحظ الليلة ، وربما كان لشخصي الضعيف أثر في
تمهيد الطريق وفرشه بتلك الزهور التي ابيض شعرنا هذا في
اصطناعها لمثل هذه اللحظات .. لقد تكلمنا عنك طول
الوقت ... وعلمت أنها في « باريس » ستزل في فندق « إدوارد
السابع » وأنه قد حجز لها فيه حجرتان وحمام ... وقد استكثرت
أنا عليها الحجرتين ، واستأذنتها في أن تنزل لك عن حجرة ...
فما تمالك أن صحت وأنا أهتز كالقصبه من التأثير
والاضطراب ، والفرح والإعجاب :

— أقسم لك بشرفك يا سيدى أنك أبرع من رأيت على وجه
البسيطة ، بل أقسم بشرفك ثلاثا أنك ملك أرسل إليّ

من السماء ... وهل من الضروري أن أرى لك أجنحة حتى
أصدق أنك ملك من ملائكة السماء ! ...

فمضى الشيخ يقول دون أن يحفل بقسمي وحماستي :
— ولقد قبلت آخر الأمر بعد إلحاح ... فهأتذا معها منذ الغد
في جناح من الفندق ، لا يفصل بينكما ...

فأسرعت وقاطعته ، وقد بدا لي ما أزعجني :
— لكن أصغ إليّ يا سيدي ... أتعرف « كليوباترا » وذلك
« العبد » الذي أعطته ليلة من لياليها ، وفي الصباح قتله ؟ ...
أتعرف « سميراميس » وذلك « الأسير » الذي منحته نفسها في
الليل ، وعند الفجر أسلمته إلى الجلاد ؟! ... أهى تريد بي هذا
المصير ؟ ...

فقال الرجل :

— دعنا من الجلاد والعبد وهذا الكلام الذي تملأون به
القصص ... إن كل ما أعرف الآن أن هذه الجميلة قد أمست
طوع بنانك ! ...

— بناني ... اللهم لطفا بعقلي ... اللهم ...

وانحبس الكلام فى حلقى ، ولم أدر ما أفعل ، فارتيمت على
حذاء الشيخ ، فأسرع وأمسك بذراعى صائحا :

— ماذا تصنع ؟ ...

— أقبل قدميك ...

هذا تفعله إذا كنت تبصر على رأسى تاجا من الورق
المقوى ... أو كنت تحسبنى ملكا من ملوك المسارح ... انهض
يا ... « عدو المرأة » ... حسبى اغتباطا أنى أصلحت بينك
وبينها ، وما تركتك حتى يسرت لك الأمور ، ونظمت لك
الشؤون .. وإن طلبت معونتى بعد ذلك فى أى وقت ، فإنك
تجدنى فى « جراند أوتيل » بميدان الأوبرا ، حيث يحجزون لى
دائما حجرتى ، إذ أقيم فى « باريس » ... والآن وقد وضعت
يدك فى يد امرأة جميلة ، فإنى أستاذنك فى الانصراف .. ليلة
هائلة .. وإلى اللقاء !! ...

وتركنى الرجل ومضى ... وأنا كمن قد ذهب ليه وغاب
وعيه ... لا أعرف بعد إن كنت فى قطار يجرى لى على الأرض ،
أو فى منطاد يرقى لى إلى السماء ...

كان كل همى — وقد دخل القطار « باريس » — أن أدبر
 طريقة الهرب من « موريس » ... لكن ... كيف الهرب
 وحقائبي بين حقائبه !؟ ... وهو لا ريب شاعر بي إذا أبدت
 حركة .. فلنكن شرفاء ... ولنخبره من مبدأ الأمر بما خامر
 النفس ، وانطوى عليه العزم ... وأردت أن أفاتحه .. فوجدته في
 النافذة مستقبلا « باريس » كمن يلقي حبيبا بعد طول فراق ...
 وقد أنساه الشوق والحنين نفسه ومن حوله ، فجعل يصفر بفمه
 أغنية الراقصة « مستنجيت » .

« باريس غادة شقراء ..

باريس ملكة الدنيا ! ... »

فانتهزت الفرصة ، وغافلته ماذا يبدى إلى حقائبي .
أستخلصها من بين الأمتعة وأخرجها إلى الممر ... وأضعها بعيدا
عن المقصورة ، قريبا من باب العربة .. وفرغت من ذلك كله ،
دون أن يتنبه إليّ ... ففرحت ، وحمدت الله ... ولم يبق إلا أن
أضع قبعتي وأحمل معطفى وعصاى ... ففعلت .. وما كدت
أهم بمغادرة المكان ، حتى التفت إلى هذا اللعين قائلا :

— ماذا تصنع ؟ ...

فانخلع قلبى ... وسقط فى يدى ... ولم أربدا من الكلام ..
فقلت :

— أهرب منك ...

فقال فى نبرة ساخرة :

— وهل نجحت ؟ ...

فملاّتنى هذه العبارة غيظا ، وذكرت كل ذلك الجهد الذى
ذهب سدى ... غير أنى تمسكت بالصبر واصطنعت الحلم

... وقلت له :

— أصغ إلي أيها الصديق ! ...

فقال باسم :

— هاأنذا مصغ ...

— إنك تتمنى لي الخير ؟ ...

— طبعا ...

— والهناء ؟ ...

— طبعا ... طبعا ...

— هنالك طريقة واحدة أنال بها ما تتمنى ...

— ما هي ؟ ..

— هي أن تعود فتدير وجهك نحو النافذة ، وتصفر بفمك

أغنية « مستنجيت » وتجعل كأنك لم تر شيئا ولم تنبهه إلى

شيء ! ...

— وعنوانك ؟ ...

— يحفظ بشباك البوستة العمومية ...

فلم يتردد .. وأسرع فاستقبل النافذة ... وهو يغمز لى بطرف
عينه أن :

« رح ... لست أرى شيئاً ، ولا أتنبه إلى شيء ! ... » .
وظفق يصفر :

« باريس غادة شقراء
باريس ملكة الدنيا ! ...
عيناك تبسم دائما ...
كل من عرفك
وتمل من لطفك
يذهب عنك
ليعود إليك دائما ... »

سرت إلى جانب الجميلة على إفريز المحطة ، في طريقنا إلى باب
الخروج ، وقد تغيرت في عيني مظاهر الأشياء ، وقد أمسى لكل
شيء معنى آخر فوق معناه ... ومررنا بالقطار الذي كنا فيه ،
وهو واقف ، يتصاعد من عجلاته البخار ، ويقطر من جوانبه الماء
والغبار ... فقلت :

— هذا « البراق » الذي ركبناه ، واقف يلهث تعباً ويتصبب
عرقاً ! ...

فقلت الجميلة :

— منذا يقول إن مثل هذا الشيء القبيح قد استطاع أن

يقودنا خلال أبهى المناظر ... وأن يعرض على أبصارنا أجمل حلى الطبيعة ، وأبدع كنوز الخليقة ! ...

فقلت لها :

— إنه مثل الشاعر ، بل مثل الفنان ... زرى الهيئة أحيانا ، ولكنه هو المنوط بقيادة البشر خلال مروج الحسن وفراديس الجمال ! ... من أجل ذلك يا سيدتى ... لا أنصح كثيرا للناس أن يتأملوا الفنان من الخارج كما نتأمل نحن الآن هذا القطار ... فإنهم لن يروا عليه سوى آثار التعب والغبار ! ...

فالتفت الجميلة فجأة ، ونظرت إلى وجهى مليا ... وقالت باسمه :

— نعم ... أرى ذقتك لم تحلق كما ينبغي ! ...
فخجلت ... وأردت أن أبدى السبب لو أن هنالك سببا ...
لكننى رأيت مندوب فندق « إدوارد السابع » يقبل نحونا ويرفع قبعته ذات الرقعة النحاسية .. وقد بدا لى أنه

عرف نزيلته المعتادة ... وعرف حقائبها مع الحمالين ، فمشى في أثرهم ... وخامرني أنا قلق نغص عليّ ما أنا فيه ... وجعلت أفكر في أمر هذا الفندق الكبير :

فندق « إدوارد السابع » ببابه الدائر كأنه ساقية آدمية لا ينقطع له دوران ... يقذف إلى بهوه القادمين ، ويلفظ إلى إفريزه الراحلين ، وقد وقف عليه في ملابس الـ « جروم » غلامان ضخما الجسم أحمر الوجه ، كأنهما ثوران ، يحملان المظلات ، ويهرعان لا استقبال السيارات ... كلا ... لن يغمض لي جفن في مثل هذا الفندق ... ولقد كنت دبّرت من قبل أمر مسكني الذي يستطيع مثلي أن يعيش فيه ... فنظرت إلى الجميلة بجانبى ... — أين ننزل ؟ ...

— يدهشني أنك لا تعرف ...

— « إدوارد السابع » ؟؟ ... إني لا أحب النزول في فنادق

الملوك ...

فالتفتت إلى مازحة باسمه :

— شيعى ؟؟ ...

— لست كذلك بالضبط ... ولكنى رجل تعوزه الشجاعة
أن يحيا طويلا فى غمار أولئك الذين خلقوا ليرتدوا ثياب السهرة فى
كل ليلة ، ويقفوا على مائدة « الروليت » ، ويغرقوا فى مقاعد بهو
الفندق الفخم يدخنون « الهافانا » ، ويتحدثون عن سباق
« لونشان » ... لقد غلطت يا سيدتى مرة فى فندق « أوروبا »
العظيم ، فهربت فى اليوم التالى ... وجعلت أبحث عن بغيتى حتى
وجدتها فى فندق « شتين » المطل على النهر ، المطل باللون الأحمر
القانى ... لون الطاحونة الحمراء ، التى كانت يوما صدر
« مونمارتر » الزاخر بعاطر الهواء ... آه ! ... لكم وقفت الليالى
تحت تلك الطاحونة الحمراء ... أتأمل مراوحها المضيفة وهى
تدور ... فما أتمالك أن أصبح :

— تلك رثائك يا « مونمارتر » ! ... إنك لا تتنفسين إلا

ليلا ...

وما أشعر عندئذ إلا وأحد الحمالين كاد يصدمنى بعربة عليها
أثقال يدفعها بيده ... فجذبتنى الجميلة من ذراعى جذبة
أنقذتنى ، وقالت فى خبث ظريف :

— كاد الشعر يضيعك ... فأنقذتك امرأة ! ...

— إنى مدين لك بحياتى ! ...

قلتها فى بساطة غير المؤمن بما يقول ... وفى ابتسامة المجامل ،
وفى سرعة من لم يجد غير ذلك ردا ... واقتربنا من الباب الكبير ،
وقد اصطفت السيارات ، فالتفتت إلتى ثانيا قائلة :

— إذن لن تأتى معى إلى « إدوارد السابع » ؟ ...

— ومن قال إنك ستذهبن إلى « إدوارد السابع » ؟ ...

فنظرت إلى بعينين واسعتين من العجب :

— ماذا تعنى ؟ ...

— أعنى أن أهل الفن أمثالنا لا يحسن بهم إذا هبطوا
« باريس » أن يحيوا حياة تجار الحديد وأصحاب مصانع

الكبريت ! ... إن الفنادق ليست لنا بمنازل ... إني أعرف
ذوقك ... أنت لا غنى لك عن صور جميلة ، « وكروكى »
بارعة ، و « اسكيس » غريبة ترين مخدعك ... أنت لا غنى لك
عن مكان رحب تطلقين فيه كل صباح خطواتك الصادحة ...
أنت لا غنى لك عن ضوء غزير ، يشع من جدران بلورية ... أنت
لا غنى لك عن أزهار وأطيّار ، و ...

— ما هذا الوحي الذى هبط عليك فى المحطة ! ...
— إنه يهبط علىّ حيثما أنت معى ... وهل أنت إلا هو ! ...
وأسرعت فأشرت إلى سيارة « تاكسى » انطلقت بنا فى طرفة
عين تجوب شوارع « باريس » ... وقد تملك كلانا وجوم الحنين
إلى هذه المدينة العزيزة ، فما انتبهنا إلا على صوت السائق يستدير
إلينا سائلا عن الجهة التى إليها نقصد ... فبادرت مجيبا :
— « مونبارباس » ... شارع « دى لامير » ...

فصاحت بى الجميلة :

— ما هذا ؟ ...

— هذا يا سيدتى المكان الذى ينبغى أن توضعى فيه داخل إطار
فوق « شفاليه » كما توضع صور مثيلاتك من الحسان
الخالدات ! ...

— إنك تتصرف فى حياتى على نحو غريب ! ...

— اسمحى أن يكون لى هذا الشرف مرة فى حياتى ...
ومر برأسى تلك اللحظة خاطر ، فنظرت من نافذة السيارة
الخلفية الصغيرة ، فلم أجد أحدا يتبع أثرى ... فعلمت أن الماكر
« موريس » قد ارعوى وانصرف إلى شأنه ...

والتفت إلى الجميلة فأبصرت التردد والتجهم قد بدءا يظهران
فى شبه خطوط رفيعة فوق جبينها الفضى ... فرأيت أن أشغلها
بالحديث قبل أن ينبت فى رأسها عزم يسيثنى ... وكنا قد مررنا بـ
« اللوفر » ونحن نعبر « السين » إلى الضفة اليسرى على قنطرة
« بون رويال » فأشرت إليه وقلت لها :

— ههنا امرأة لها مثل عينيك ...

(راقصة المعبد)

فألقت إلّى نظرة تنم عن فكر شارد ، ولكن فيها مع ذلك معنى
الاستفهام ... فمضيت فى الكلام :

— هى « لو كرىزىا كرىفلىلى » ...

فأقبلت علىّ فى انتباه ، وقد انفرجت أسارىرها ، وتفتح ثغرها
تفتح الزهرة بالابتسام ... وقالت :

— أهى لم تزل على الحائط الأيسر فى القاعة المستطيلة ! ...

— بارك الله فى ذاكرتك ! ... أعترف لك فى خجل أن مسألة

الحيطان هذه أكبر من أن يسعها رأسى الضعيف ! ...

— لماذا ؟ ... إن صور « لىوناردو » كلها فىما أظن على

الحائط الأيسر ! ... تذكر معى : « إله الخمر » والقديس

« يوحنا » و « الجوكندا » و ...

وجعلت تستعرض تلك اللوحات ، وأنا مشغول منهوب ...

أرئو إلى حركة شفيتها وهى تلفظ أسماءها فى نطق إيطالى لذيذ ...

وقد فطنت لنفسى حتى لا تفاجئى هذا الرنو الذى قد يكشف عن

أشياء يخفيها قناع من البساطة والمرح ...

ودخلت السيارة شارع « دى لامير » ووقفت على باب كبير ، فانتبهت الجميلة ونظرت إلى ، فلم أبادها النظر ، وأسرعت بفتح باب العربة ، ونزلت ومددت يدي إلى يدها أعينها على النزول ... ثم دفعت إلى السائق أجره ..

وقرعت جرس المنزل ، فخرجت حارسة الباب ... فما رأته حتى عرفته وحيته أحسن تحية ... والتفتت إلى الجميلة وانحنى لها وهى تهمس : « مدام » ... ثم عادت موجهة إلى الكلام قائلة : إنها قد تسلمت برفيتي ، وأعدت المسكن خير إعداد ... ووضعت النار فى المدفأة الكبيرة ...

وأشارت إلينا أن : تقدا ... وبادرت هى إلى الأمتعة ، فأنزلتها إلى الأرض ، وحملت منها ما استطاعت حمله ، وتبعتنا به ... وسرت أنا بالجميلة إلى المصعد ، وارتفعنا إلى الطابق الخامس ... ثم مشينا إلى باب على اليمين ، وأخرجت من جيبى مفتاحا صغيرا ففتحته به ... وأشارت إلى الجميلة أن : تفضلى ... فدخلت فى شبه دهليز فى صدره ستارة ، وفى

حانيه أبواب صغيرة ... فنظرت مستطلعة من خلال الأبواب المفتوحة ، فإذا على اليسار قاعة للأكل بسيطة صغيرة منخفضة السقف .. وإذا على اليمين مطبخ صغير مجهز بالآنية النظيفة اللامعة ، وأدوات الطهى والشواء فوق فرن صغير توقد ناره من غاز يجرى فى أنابيب ... ثم سلم صغير حلزوني الشكل ، يوصل إلى شبه طابق آخر فيه حجرة النوم والحمام ... واقتحمت الستارة ... فإذا هى فى قاعة هائلة طولها طول المسكن كله ، وارتفاعها ارتفاعه ... جدارها الطويل من البللور ترى منه الشمس إذا طلعت ، وبرج إيفل إذا صفت السماء ... وقد انتحى الموقد الكبير ركنا مهملا من أركان تلك القاعة ، يكتنز النار فى قلبه كأنه عاشق مهجور ، وفى ركن آخر مكتب كبير عليه كتب وأوراق ، وحوله فرش وثيرة فوق سجاجيد ، ألقى عليها جلد دب أبيض ووسائد منشورة .. وفى الوسط قام « شفالیه » من خشب الجوز يحمل « لوحة » زيتية من عمل المصور النرويجي « أوتو » الذى كان يقطن هذا

المكان ، تمثل عروس الرقص « تربسيكور » تمثيلا غريبا لا علاقة له قط بلوحة « شوتزبرجر » الشهيرة المعروضة في متحف « اللوكسمبورج » ...

ألقث الجميلة نظرها على هذا كله ، وهمست كالخاطبة لنفسها :

— « ستوديو » ١٩ ..

— نعم ... وهنا ينبغي أن نعيش ...

ودخلت حارسة الباب بالأمثلة ، ووضعتها في الدهليز ، ثم سألتنا عما إذا كنا نطلب شيئا ، فأجبتها بالسلب ، فانصرفت وأغلقت خلفها الباب وأشارت أنا إلى حجرة النوم ونوافذها الصغيرة التي تشرف على القاعة ، وقلت للفاتنة :

— تلك حجرتك ... اسمحي لي أن أصعد أمتعتك إليها ...

وتركتها في الحال ... وصعدت السلم الحلزوني حاملا حقيبتها .. ثم عدت إلى جانبها ، وقد دنت من أصص أزهار « الميموزا » و « الهورتنسيا » على الجدار الزجاجي ، وابتسمت لألوانها ، ثم التفتت إلّى :

— صدقت .. هنا كل شيء جميل ... لكن ...
ورفعت عينيها في شيء من التردد والحيرة إلى حجرة النوم
الوحيدة :

— لا أستطيع مع الأسف أن أقبل ضيافتك ... لقد كنت
أحسب أن لديك ...
فأدركت مرمى قولها ، وسارعت قائلاً :

— اطمئني ! ... هذه الحجرة لك وحدك ، لا شريك لك
فيها ...

— وأنت ؟ ...
— إنى سأرقد على هذا الفراش في هذه القاعة ...
— إلى الحق أن أغتصب حجرة نومك وألقى الفوضى في نظام
حياتك ؟ ...

— إن الفوضى هي نفسها نظام حياتي ... وأنت التي لها الحق
أن تغتصب قلبي ... أفلا يكون لها الحق أن تغتصب
حجرتي ؟ ..

فضحكت وقالت :

— أصبت ، هذا منطق لا بأس به ..

واستأذنت في الذهاب إلى حجرتها لبعض شأنها ... ولبثت أنا
في مكاني قليلا ... وبدأ لي أن أفرغ أنا أيضا حقائبي ... وأن
أهين أمري في تلك القاعة ...

ومضت ساعة وكلانا غارق في شؤوننا التافهة ... وقد
أخرجت ملابسي ودسستها في خزانة بالحائط معدة لحفظ أصباغ
التصوير وريشه ... وألقيت بكتبي التي ابتعتها حديثا على
« رف » فوق الفراش .. ورميت على رأس الدب خفي الأصفر
الذي كنت اشتريته من خان الخليلي بالقاهرة ... وقذفت
على الوسائد ذات الرسوم الحديثة بعباءتي « الألاجبا »
الزرقاء ... ووضعت « الجراموفون » الذي لا يفارقني
فوق مائدة صغيرة من موائد العمل ... ثم خلعت نعلي
وبعض ما علي من ثياب ، وذهبت إلى المطبخ ، فغسلت
وجهي ورأسي فيه إذ لم أشأ استعمال حمامها ...

وعدت فجعلت « البلغة » فى قدمى ، وارتدبت العباءة ...
ووخزت بالإبرة صدر « الجرامفون » فانطلقت « رقصة
الأزهار » للموسيقى « تشايكوفسكى » تتأوج أنغامها فى
المكان ، وتحيط بصورة « تربسيكور » وتكاد تخرجها من
الإطار ، راقصة رقصتها الإلهية ، وكأنى بالأصص تهتز فوق
الجدار ، وكأنى بـ « الميموزا » تراقص « الهورتنسيا » ... وإذا
الجميلة تبدو فى نافذة حجرتها المطلة على القاعة وهى فى « روب
دى شامبر » من الحرير ، قرمذى اللون موشى بخيوط من ذهب فى
لون عينيها ... وإذا هى تتمايل لوقع الموسيقى فى لطف ورقة ،
فخيل إالى أنها فراشة جميلة فرت من الجنة أو من حديقة
علوية لا وجود لها إلا فى مملكة الخيال ، أو أنها هى
« تربسيكور » نفسها انطلقت من الإطار ووقفت بالنافذة ،
فالتفت إلى « الشفاليه » فإذا الصورة أقل شأنًا منها فى إبراز روح
الرقص ... وإذا هذا التمايل الخفيف اللطيف ، كأنه تمايل السنبلة
أو الزهرة تحت النسيم ، إنما هو شىء لا يقع إلا من

« عروس الرقص » نفسها ! ... فوجئت لحظة ... ورنوت إليها
مأخوذا ... ثم لم أتمالك أن صحت بها :
— تربسيكور ! ...

فلم تجبني ... ولم يبد عليها أنها فطنت لصيحتي ، حتى
سكت الجراموفون ... فانتبهت لنفسها ولي ... وهمست :
— حقيقة ، هذا « البالية » من أجل ما كتب
« تشايكوفسكى » ! ...

واختفت من النافذة ... ثم لم ألبث أن أريت يدها الصغيرة
البيضاء تزيح الستار قليلا ... وإذا هي في القاعة تقبل على في
خطى رشيقة ... وما وقفت عيناها على هيئتي بعباءتي حتى
اتسعت حدقتها ... وقالت دهشة :

— عجبا ! ... كأني في حضرة « هرون الرشيد » ! ...
فأجبتها باسمها :

— أتأذنين ! « هرون الرشيد » أن يلثم يدك ؟ ...

فمدت إلتى يدها فوضعتها على شفتى فى خشوع ... ثم
أجلستها على مقعد وثير فى صدر المكان ... وجلست بين يديها
على وسادة فوق الأرض جلسة تشبه الركوع ... ورفعت عيني
إلى هذا التكوين البديع ... ولم أجد ما أقول ولا ما أصنع ... وهل
نقول شيئاً أو نصنع شيئاً إذ نتأمل آيات « اللوفر » وروائع
« السكستين » ! ...

— لماذا تنظر إلتى هكذا ؟ ...

— لست أدرى ...

والواقع أنى لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآة عيني
أشياء خفية لم تطف بعد على وجه نفسى الواعية ؟ ... إنى حتى
الساعة لا أعترف فى دخيلة قلبى أن للحب شأنًا فيما نحن فيه ...
فهى ولا ريب لم يكن ينقصها أن تلقى فى حياتها مثلى حتى تعرف
ما هو الحب ... وأنا لا حاجة لى إلى التجرع من كأسه مرة
أخرى ... فليكن لقاءنا إذن هادئًا صافيا جميلا ... فاويل لمن يقع
منا الآن فى الحب !

والواقع أنى لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآة عيني أنى
لست أدرى ... أتراها أبصرت فى مرآة عيني أشياء خفية لم
تطف بعد على وجه نفسى الواعية ؟ ... إني حتى الساعة لا
أعترف فى دخيلة قلبى أن للحب شأنًا فيما نحن فيه ... فهى ولا
ريب لم يكن ينقصها أن تلقى فى حياتها مثلى حتى تعرف ما هو
الحب ... وأنا لا حاجة لى إلى التجرع من كأسه مرة أخرى ...
فليكن لقاءنا إذن هادئًا صافيا جميلا ... فالويل لمن يقع منا الآن فى
الحب ! ...

وأرادت أن تقطع الصمت ، فمالت بجسمها ومدت يدها
تطلب كتابا أبصرته فوق المكتب ... فدنا رأسها منى ، وقد
أنحدرت خصلة من الشعر فوق عينيها ، شممت عطر
« الأوبيجان » فى هذا الرأس الجميل أحسن ما يكون هذا العطر ،
وكأنه مزج بأريجها هى ... فأحسست شيئا يصعد إلى رأسى
الهادئ ويلقى فيه جمره ... ولعلها رأت احمرار وجهى وجمود
موقفى ... فقالت باسمه :

— فيك شيء الساعة يشبه الفتى الذى لم يبلغ العشرين ! ...

فانتبهت لعبارتها وقلت على الفور كالمخاطب لنفسى :

— أرايت ذلك !؟ ...

فلم تجب ... وسددت إلى نظرة رائشة بأهداب من حرير :

— هل أنت أحببتنى ! ...

فأسرعت كالمرتاع :

— لا تقولى ذلك ! ...

فضحكت لروعى ضحكة رقيقة ، وقالت :

— إنك تخشى الحب كمن يخشى الموت ! ...

— نعم ...

قلتها فى صوت خافت وأنا مطرق ... ولم أزد ...

ومضت تقول دون أن ترفع نظرتها المصوبة ، وقد اتخذ صوتها

على عذوبته نبرة أخافتنى :

— عرفت ذلك منك منذ النظرة الأولى ... من أجل هذا ...
وسكنت في الحال ... كأنما كادت تنزلق على شفا غلطة ...
ولم تمنحني وقتاً أسأله فيها ... ونهضت وهي تنظر إلى ساعة في
معصمها ... ثم قالت :
— ألا نخرج ؟
— نعم ...

ولم أتحرك من مكاني ... ولم أنتبه إلى الكلمة وهي تخرج من
فمي ... ولم أفطن إلى عبارتها الأخيرة ... ولم أحس ذهابها إلى
حجرة النوم ، وعودتها بملابس الخروج بعد زمن لا أستطيع
تقديره ... ولكنني فطنت هذه المرة إلى قولها في صبيحة دهشة :
— عجباً ! ... ألم تتحرك ؟ ... ماذا بك ؟ ...
فرفعت رأسي ، ونظرت حولى وقمت للفور أقول في شبه
فزع :
— أنت ذاهبة ؟ ...

فحملت في وجهي ... فتذكرت ... وأسرعت فخلعت
عباءتي ، وارتديت بسترقي ، وتناولت عصاي ، وأنا أقول :
— نعم ... فلنخرج للعشاء ... أين ؟ ...
— عند « الأب لويس » فليس له في باريس نظير في شي
الدجاج ! ...

جلسنا في ذلك المطعم إلى خوان بالقرب من النار المستعرة في
شبه موقد بالجدار ، نصبت فيه « أسياخ » طويلة رفيعة ، قد
رشق بها دجاج شهى ، تلحسه عن بعد أطراف ألسنة من اللهب
حمراء ، وقد جاءنا الغلام بورقة « النبيذ البورجوني » فنظرت فيها
« ناتالي » وقالت :

— « شابلي » .

— زجاجة « شابلي » ! ...

قالها الغلام وهو ينظر إليّ ... فقلت دون وعي :

— نعم ... وأنا « بومار » .

— زجاجة « بومار » !

— نعم ... نعم .

فصاحت الجميلة :

— زجاجتان ؟ ... هذا كثيرا ... إني لا أريد أن يذهب لب

مولاي « هارون الرشيد » .

فقلت في شيء من المرارة ، وكأني أخطب نفسي :

— لقد ذهب لب مولاك « هارون الرشيد » وانتهى

الأمر ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة ونهضت قائلة إنها تريد مكان

« التواليت » وتركتني مطرقا غارقا في جو مبهم من الانقباض ...

وعادت بعد برهة إلى جانبي دون أن أشعر بها ... فرفعت رأسي

إليها ، فوجدتها تتأمل وجهها في مرآة صغيرة بين

أناملها ... فجعلت أتأمله أنا أيضا ، وجعلت عيني تنتقل من

جبينها إلى أنفها ، إلى شفتيها ، إلى خديها ، إلى نحرها ... وقد

غمر نفسي خوف وكآبة ... وأدركت لأول مرة الوزن

الحقيقى لتلك الكلمة التى قلناها فى خفة وبساطة ، أنا وموريس : « الجمال الخفيف » ... وأقبل علينا الغلام مسرعا يعلن أن فى التليفون من يطلب « السيدة » ... وأشار إلى « ناتالى » فنهضت على عجل ، واستأذنتنى بنظرة ، ومضت ... ففهمت أن ذهابها فى المرة الأولى لم يكن للزينة وحدها ... وعادت بعد قليل وجلست دون أن تلفظ حرفا .. وجاء النبيذ المعتق فى زجاجتين يعلوهما التراب والعنكبوت ... وسكب الغلام فى الأكواب ... ورفعت « ناتالى » كأسها إلى شفيتها الرطبتين وهى تقول فى صوت كالهمس :

— فى صحة مولاي ! ...

— فى صحة جاريتنا ! ...

قلتها دون أن ضحك ، ودون أن أبسم ، وفى شئ من الصرامة وسوء الخلق ... وأردت أن أرفع الكوب إلى فمى فاهتز فى يدى اهتزازا كاد يريق ما فيه على غطاء الخوان الجميل ... ونظرت « ناتالى » إلى يدى المرتجفة ، وإلى

جهدى فى حمل الكأس المتلاعبة ، وإلى يأسى ووضعى الكوب فى مكانه من المائدة دون أن أشرب شيئاً ... فقالت فى نبرة غريبة :
— الآن فلتسمنى ما شئت ! ...

* * *

ذهبنا بعد العشاء إلى حانة « الأرنب الخفيف » حيث سمعنا أغاني « باريس » القديمة ، وأقول « سمعنا » من قبيل التجاوز ...
فأنا لم أسمع شيئاً ، ولم أع شيئاً ... وعدنا فى منتصف الليل ، أو بعده بقليل أو كثير ... لا أدرى ... ودخلنا « الاستديو » ووقفت عند الستار الموصل إلى القاعة الكبرى ... ومددت يدي إلى « ناتالى » مشيراً بالتحية .
— نوما هانثا يا سيدتى ؟ ...

وتركتها تصعد إلى حجرة النوم ... وذهبت أنا إلى الفراش الممدود بقرب المكتب ... فخلعت ملابسى على عجل ... وأطفأت النور ، وارتميت بين الوسائد أطلب النعاس

... ولكن نور حجرتها كان ينفذ إليّ من نافذتها المطله على قاعتي ... فلم يغمض لي جفن حتى أطفأت هي نورها ... وشمل الظلام المكان ، فحسبت أنّي عندئذ سأنام ... ولكن النوم امتنع عليّ ... وجعلت أثقلب الساعات يمينا وشمالا في طلب إغفاءة لا تأتي ... إلى أن وثقت من أن النوم الليلة شيء بعيد المنال ... فقامت وأضأت القاعة ، وجلست إلى المكتب أقرأ كتابا ... وقرأت بالفعل سطرين أو ثلاثة ، ثم وضعت رأسي بين كفتي ولبثت على هذه الحال حتى طلع النهار ، وسمعت صوت سيارات « الأتوبيس » الأولى تنطلق كالفرحة بالصباح الباكر في « بولفار رسباي » فنهضت من فوري ... وارتديت ملابس الخروج في غير جلبة ولا ضوضاء ، حتى لا أوقظها ... وقبل أن أغادر المكان ذهبت إلى المكتب ... وتركت عليه هذه الكلمة :

— سيدتي :

« لم يبق أمامي غير الفرار ؟ »

انطلقت من ساعتى إلى فندق « جراند أوتيل » بميدان
 الأوبرا ... وسألت عن الشيخ فقيل لى إنه قد استيقظ مبكرا
 كعادته ... وأنه الآن يتناول طعام الإفطار فى حجرتة ... فبعثت
 إليه بطاقتى ، فأذن لى فى الدخول عليه من الفور ... ولم يكد
 يرانى حتى صاح بى :

— أيها الرجل السعيد ! ... ما كنت أتوقع رؤيتك ها هنا بهذه
 السرعة ! ... أين الجميلة التى وضعت يدك فى يدها
 البارحة ؟ ...

— قد طلقتها ...

فحملق فى وجهى كمن ظن بى مسا :

— أنت ؟! ...

فنظرت إليه ولم أتكلم ... فمضى متعجبا :

— أنت فعلت هذا ؟! ...

فقلت وعيناي إلى الأرض كمن اقترف إثما :

— نعم ...

فقال الشيخ وكأنما يخاطب نفسه :

— أنت الذى أراد أمس أن يقبل قدمى من أجلها !!... —

فتشجعت ورفعت رأسى قائلاً له :

— اسمع يا سيدى الجليل ...

— لا أريد أن أسمع فى أمرك شيئاً ...

وجعل يسير فى الحجرة ذهاباً وإياباً ... وهو مطرق حزين ،
كأنما فقد أسهما ذات شأن فى « بورصة » أعماله فى
« بوخارست » !.... ولم أدر ماذا أصنع لأهون عليه
الخطب ... فلزمت الصمت ... وجعل هو يضرب كفا على
كف ويقول :

— طلقها ! ...

فاعترضته قائلاً :

— أصغ إلّى لحظة ...

فلم يلتفت إلّى ... ومضى يقول :

— طلقها « هارون الرشيد » بعد ليلة ... لا بعد ألف ليلة

وليلة ! ..

فنهضت إليه متوسلا متذللا :

— يا سيدى ! ... ألا تصبر علىّ حتى أوافيك بالأسباب

وأواتيك بالحجج ! ...

فصاح فى وجهى :

— حجج ! .. أتريد أيضا أن تقدم حججا على هذا

الكفر ! ...

فأطرقت فى خزى ... ومضى الشيخ يقول :

— يا للقسوة ! ...

فرفعت رأسى قائلا :

— قسوة من ؟ ...

فلم يحفل بى .. وجعل يقول :

— أتزعم أن لك قلبا من لحم ودم ! ...

فلفظت زفرة من أعماق نفسى المهدمة ...

— آه يا سيدى ... إنك تظلمنى ... وحق جمال تلك الفاتنة

إنى لم أعرف طعم النوم منذ فارقتنا ...

فأنقذتنى هذه الآهة ... وأقبل علىّ الشيخ مسرعا وقد

انقلب غضبه وسخطه حدبا وعطفا :

— أرني عينيك أيها المسكين ! ...

ووضع منظاره على أنفه وجعل يحد إلى البصر ، كأنه طبيب

عيون يفحص عين مريض :

— نعم ... نعم ... أرى تباريح الهوى ، وتباشير الألم ...

— تباشير ... ؟!

قلتها وأنا أخلق فيه ... لكن الشيخ جذب مقعدا أدناه مني ،

وجلس فيه راضيا باسم ... وأشعل سيجارا وجعل ينفخ الدخان

في راحة واطمئنان ، ويقول :

— الآن ... هات حججك وأسبابك ! ..

فنظرت إلى الرجل طويلا — دون أن أتكلم — نظرة المستطلع

المتسائل عن اغتباط هذا الرجل لعذابي ... كأن بيني وبينه ثارا

قدما ... ورفع الرجل سيجاره عن فمه ، ولحظني بطرف عينه ،

وقال :

— قبل ذلك أريد أن أسألك :

هل تعرف شيئا عن ناتالى ...؟

فأجبت :

— مطلقا ... امرأة فاتنة وكفى ! ..

فقال :

— اسمح لى إذن أن أقول لك إنى أعرف أكثر منك قليلا ...

لقد فتن بها — بين من فتن — ثلاثة رجال ، أولهم : مات
منتحرا ...

فتراجعت ذعرا فى مقعدى صائحا :

— الله أكبر ! ...

فلم يهدئ الشيخ من روعى ، ولم يلتفت إلّى ، ومضى يقول :

— وثانيهم : فقد ثروته ...

— معقول والثالث ؟ ...

— الثالث ... وكان فنانا ...

— آه

ونفضت أرتمى على قدمى الشيخ :

— أتوسل إليك ... أتوسل إليك أن تنقذنى مما أنا فيه ... قبل
فوات الأوان ! ...

فلم يعبأ بى ... وجعل يقول :

— والثالث ...

فصحت به :

— أريد أن أعرف ما حدث للثالث ... ارحمنى ! ... لقد
تبت وأنبت ...

— والثالث ... كان فنانا ... موسيقيا .

فبادرت صائحا :

— آه ... أحد أمرين : إما أنه باع « الكمنجة » وإما إنه شقق
نفسه بالأوتار ! ...

فابتسم الشيخ وقال :

— لا هذا ولا ذاك ... وضع لها « فالس » يعد من خير ما
أنتجت قريحته ...

فاطمأنت نفسى قليلا ... وهذا ثائرى ، وقلت كالخاطب

لنفسى :

— نعم ... ليس للفنان الحق في أن يموت بالحب أو بغيره ، قبل أن يؤدي الأثاوة إلى إله الفن ! ...

فقال الشيخ :

— لقد قالت هي أيضا ذلك ...

— ماذا قالت ؟ ...

— قالت ونحن نتآمر عليك ..

— تتآمران عليّ ؟! ...

فأحس الشيخ أن لسانه قد زل ... ولم يستطع التراجع ، فأقبل عليّ قائلا :

— آنا الأوان أن أعترف لك أيها الصديق بما كان من الأمر ...

— تعترف ... ؟!

قلتها في دهشة ... وقد أدركت أن القناع سيسقط أخيرا على وجه حقيقة أخفيت عني ... وتنحني الشيخ وقال :

— قبل كل شيء ينبغي أن تعلم أني من هواة الرياضة ... وأحب الرياضة عندي تسلق الجبال وصيد الوعول ... أما

التسلق فيها أنذا آت منه ... وأما الصيد فإن موسمه يبدأ في
سبتمبر ... وأحيانا في أكتوبر ... هذا يتوقف على المنطقة
وعلى ...

فقاطعته قائلا :

— أحسب أنك أردت أن تحدثني في أمر يتعلق بي ... ؟
— إني إنما أتكلم فيما يتعلق بك ... إن موسم الصيد في سبتمبر
أو في أكتوبر : أى بعد شهر طويل ... وإني لأنتظر افتتاح الموسم
نافد الصبر ...

ولقد تحدثت في ذلك إلى الجميلة في القطار ساعة العشاء ...
فاذا هى أيضا تحب الصيد ... كل أنواع الصيد : صيد
الوعول ، وصيد القلوب ... وجاء ذكرك ... وطاف
بخاطرنا وصف صاحبك لك ساعة الشاي أنك « عدو المرأة » ،
فتراهنت الجميلة معى على أن تصوب إلى قلبك سهمي يدميه ،
ويستقر فيه قبل صياح الديك ، فما رأيك ؟ ... إني أتمنى
أن تربح الفاتنة الرهان .. فليس من الكياسة — وقد
افتتحنا معا الصيد — أن أجعل سهمها يطيش ! ...

وسكت الشيخ ... ونظر إلى باسما ...
فنظرت إليه ناقما ... وقلت في سخرية مرة :
— ما كان أغناكما عن هذا التجشم ، وافتتاح موسم الصيد في
الصيف من أجل قنيصة هزيلة ! ...
فقال الشيخ وهو يرسل الدخان في الفضاء :
— قلبك الكبير ليس فريسة هزيلة ! ...
فلزمت الصمت قليلا ... وأطرقت لحظة ... ثم قلت :
— والآن ... أنت مغتبط بهذه الرياضة ... وبرؤية دمي
يشخب ... ؟

فقال :

— لقد نهيت الجميلة إلى مسألة الدم هذه ... ولقد تكفلت
لديها بتضميد الجرج ... غير أنها قالت :
— لا « شأن لك به ... إن دم الفنان من نصيب إله الفن
دائما » ! ...

فلم أجب ... وجعلت أفكر ... وقد انكشف لعيني كل
الأمر ... فما هو إلا لعب هازلين مترفين .

فنهضت ومددت يدي إلى الشيخ الثري قائلا :

— وداعا يا سيدى الرياضى البارع ! ...

فصاح بي :

— هكذا سريعا ! ...

فقلت :

— نعم ... ينبغي أن أذهب سريعا ...

— إلى أين ؟ ...

— إلى إله الفن ... ما دمتما قد خرجتما من الأمر وبرئت

ذمتكما ... وتركتمانى بدمى هبة له ... فلاذهبن إليه ... وهو لا

ريب شاكر لكما العطية ...

— وأين هو ؟ ...

— فى المعبد ...

— وما هو عنوان المعبد ؟ ...

— يحفظ بشباك البوستان ! ..

فضحك الشيخ وقال :

— إنه إذن كثير التنقل ... يذهب في كل جهة بمعبدته كما
أذهب أنا بحقيبتى ...

— ويجب التسلق مثلك ... ولكن حباله من نوع آخر ...
فأمسك الشيخ يدي وجذبني إلى المقعد قائلا :

— اجلس هنيئة ... وحدثني عنه ... !

فسحبت يدي في رفق وقلت :

— لا أستطيع ذلك الآن ... أعدك بذلك في يوم آخر ... أما
الآن فأرجو منك أن تدعني أذهب ...

فنظر في عيني مليا وقال :

— أتذهب إليها ؟ ...

فاختلج قلبي :

— من هي ! ...

فقال الشيخ في نبرة المتسامح :

— فانتنا ...

— الراقصة ! ..

قلتها في شيء من عدم الاكتراث المصطنع ، لا أظنه قد خفى على
الشيخ ... فقد لحظته ابتسم ... لكنى مضيت في كلام الخيال
لأستر حقيقتي المضطربة :

— بل إنى ذاهب إليه هو ...

فقال الشيخ في تهكم خفيف :

— إله فنك ! ...

— نعم ..

— وما وجه العجلة ؟ ... ما زال في الوقت فسحة ... ونحن

ما زلنا في الصباح الباكر ... وما أحسبه بعد قد استيقظ هذا الإله

البوهيمي ! ...

فقلت :

— إنه يتناول طعام إفطاره الآن ... وأمامه الإبريق والفنان ،

وهو لا شك ينتظر دمي حارا ..!

وأسرعت بتحية الشيخ ، وخرجت من حضرته في شبه

ركض ...

عدت توا إلى مسكنى فى ذلك « الأستديو » فلم أجد أثرا
للراقصة ... وهذا أمر طبيعى ... لقد انصرفت بأمتعتها ... ولم
تترك لى إلابضعة أسطر خطتها بالقلم الرصاص ، تحت كلمتى
التى كنت قد تركتها لها فوق المكتب ... ولم تكن الورقة فى المكان
الذى وضعتها فيه ، بل وجدتها فى فم الدب الذى يزين جلده
الأبيض أرض القاعة الكبرى .

فتحت الورقة وقرأت هذه الكلمات :

« سيدى :

وأنا لم يبق لى إلا أن أطرح القوس والنشاب وأذهب ... نفير
السيارة يدعونى بالبواب ... ونفير الصيد يؤذن بالانتهاء

قبل صياح ! لقد فرت القنيسة والسهم عالق بقلبها ... وكل
بغيتنا الرياضة ، لا الاحتفاظ بالجلود ... شكرا على الضيافة ،
« ناتالى ... »

فطويت الورقة ، وألقيت بها على الأرض بعيدا ... وجلست
على جلد الدب ... وأسندت رأسي إلى رأسه ، وقلت مخاطبا
نفسى فى زفرة المحزون وآهة المجروح :
— لا تريد أن تحتفظ بجلدى ؟ ...

مرت اللحظات ، وتعاقت الساعات ، وأنا فى مكانى لا أبدى
حراكا ... لقد فقد كل إدراك للوقت ... فلم أدر هل
انتصف النهار أو مالت الشمس إلى المغيب ... ولقد غامت
السماء ... كما غام كل شئ فى عيني ... ولم أحس الجوع ...
ولم تنزع نفسى إلى غير هذا السكون الكئيب ...

ورفعت رأسى آخر الأمر ... ونظرت إلى ما حولى ... فخيّل
إلى أن كل شىء نائم جامد لا روح فيه ... فأزهار « الميموزا » و
« الهورتنسيا » بدت لى كأنها مطرقة هى الأخرى ... وعروس
الرقص « تربسيكور » راقدة فى إطارها كالمومياء ... والنور
الذى كان يتدفق من الجدران البلورية فيملاً المكان إشراقاً ، إنما يملأ
الآن قلبى ليلاً حالكا ... كيف أستطيع الإقامة فى هذا المسكن
الآن ... إن تلك الراقصة قد أفسدت على ... لماذا دخلته لتخرج
منه وشيكاً ؟ ... لماذا جعلته بوجودها وعطرته بأنفاسها وأحيت
جماده بروحها لتتركه بعدئذ أوحش من القبر ؟ ...
آه ... بكم أشتري لحظة أخرى ، أراها فيها واقفة فى هذه
القاعة ، وهى فى ذلك « الروب دى شامبر » الحريرى القرمزى
الموشى بذهب فى لون عينيها ! ...
إنى لم أنم الليلة الماضية ، وهى بالقرب منى ... فهل أنام الليلة
المقبلة ، وهى بعيدة عنى ! ...

وارتعدت لهذه الفكرة ولم أحتمل تصورها ... فوثبت
كالجنون إلى الطريق أبحث عنها ... وذكرت أنها تنزل فندق
« إدوارد السابع » ... فقلت : هي ولا شك هناك ...

فاستوقفت سيارة مارة انطلقت بي إلى الفندق ...
ودخلت من ذلك الباب الدائر إلى البهو ، وسألت — في
عجلة — موظف الفندق عن السيدة فقال لي :

— إنها في الخارج ... لم تعد إلى الفندق بعد ؟ ...
فبادرت أسأل :

— ومتى خرجت ؟ ...

— بعد الغداء ...

وكدت ألقى سؤالاً آخر :

— مع من خرجت ؟ ...

ولكن الله عصم لساني من الزلل ، وحررت فيما ينبغي
أن أفعل ... ورأيت آخر الأمر أن أذهب ، ثم أعود في
المساء ... فخرجت إلى مشرب صغير في منعطف الطريق ...

فجلست إلى مائدة من موائده ... وطلبت كوبا من الجعة ،
وضعته أمامي ، ولم أمد إليه يدي ، فقد كان جسمي وروحي بين
يدي صورة « ناتالي » ...

* * *

جاء المساء ... فعدت إلى الفندق أسأل عن الجميلة فقيل لي أنها
جاءت ... فأخرجت بطاقتي ودفعتها إلى موظف الفندق ،
ورجوته في أن يقدمها إليها ويستأذن لي في مقابلة صغيرة ...
وانتظرت في البهو الجواب ، وأنا أنقلب على نار الخوف
والقلق ... ومضى قليل ، وإذا المصعد يهبط ، وفيه شاب أنيق
يرتدي لباس السهرة ، فتقدم إليّ حاملا بطاقتي في يده وقال :
— إن السيدة تعتذر ... إن لحظاتها كلها مشغولة ، وهي
تشكر لك الزيارة ! ...

وانحنى قليلا ، ثم عاد أدراجه ، وارتقى بالمصعد ، واختفى
عن نظري كما اختفى كل شيء في هذا الوجود ... فقد اسودت

الدنيا فى عىنى ... و كان خلفى مقعد وثير ضخم فارتميت غارقا
فيه ...

* * *

مر زمن لست أدرى مقداره ... ثبت بعده إلى نفسى ...
وهمت بالقيام والذهاب . وإذا أنا أرى المصعد يهبط ... وإذا
الجميلة فى رداء المساء البراق ، كأنها قطعة من الشمس تسير على
الأرض ... قد خطت فى البهو نحو الباب الدائر ، بحيط بها فتیان
ثلاثة ، يرتدون « الفراک » ... وكلهم جميل أنيق حليق ...
بالمناكب يفتحون لها بابها ... ثم انطلقوا جميعا كما تنطلق الأنشودة
المرحة ...

ضربت على غير هدى فى حانات باريس وملاهيها حتى الهزيع
الأخير من الليل ... ولم أجرؤ على العودة إلى المسكن قبل الساعة
التي قدرت أن النوم يقهرني فيها قهرا ...

ودخلت فخلعت ثيالي توا .. وألقيت بجسمي على الفراش
وأغمضت عيني ... واستعنت بعزيمة ماضية على طلب
النعاس ... وخيل إليّ أني نجحت ... فلقد رحت في إغفاءة
عميقة ... ومضى وقت لست أدري أهو دقيقة أم ساعة ... وإذا
أنا أنتفض أنتفاضة أيقظتني ، وكأنما شيء قد وخزني في قلبي ...
فقممت أصبح في جوف الظلام :

— يا إله الفن ! ... لماذا تفعل بى ذلك ؟ ...

لماذا تصنع بى ذلك دائما ؟ ..

وذهب النوم من عيني ... فجلست القرفصاء فى سريرى .

واضعا رأسى فى كفى ، محدقا ببصرى فى سواد الليل المحيط بى .

وجعلت أقول :

« آه ... ما من مرة صادفت فيها امرأة هزت نفسى إلا كانت

تلك هى النهاية ! ...

لماذا يا إله الفن يروق لك دائما أن تجرح وتذل هذا القلب الذى

هين لخدمتك ؟ .. » .

وغرقت فى الصمت .. ولكن كلمة « إله الفن » ما زالت

تطن فى أذنى ، كأن لها حقيقة واقعة ... وطفقت أردد :

— إله الفن ! ... إله الفن ! ... إله الفن ! ...

نعم ... إنه هو وحده الذى أتوجه إليه مستجيرا من أثقال حياة

يقودها بالسلاسل فى موكبه الحافل ...

ونظرت أمامى فى الظلام ... وقلت :

— إنك في المعبد ! ... آه لو ألقيت إلّى نظرة من فوق
عرشك ! ...

وأحسست شيئاً من العزاء في هذه الفكرة ... وجعلت أبحث
عنه بعيني في الظلام ... ترى أين هو الآن ؟ ... لست أدري لماذا
تمثل لي عندئذ بناء « الموزارتيوم » الفخم الضخم في
« سالزبورج » ! ... هذه المؤسسة الدولية التي اشتركت في
إنشائها الأمم المتحدة اعترافاً بعبقريّة « موزار » ... وجعلت
منها معهداً عالياً لدراسة الموسيقى ، ومتحفاً لآثاره ، ومسرحاً
لإبراز أعماله ... هنالك في القاعة ذات الحيطان الذهبية ...
حيث أصغيت إلى « سانفونية جوبيتر » تسيل ألحانها كالماء الزلال
من أصابع النبي « توسكانينى » ... خيل إلّى أنى سمعت همسات
الإعجاب من إله الفن ...

ثم هنالك في بناء المهرجان « الفشتستيل هاوس » حيث
شاهدت أوبرا « أورفيوس » و « إبيروديس » و « تريستان

وايزولت « لمحت أيضا حركات تصفيق خفية من يدي إله
الفن ...

وفي كنيسة « سان بيتر » حيث أصغيت إلى ألحان موزار
الدينية ... فحرت وتساءلت :

— أترى عبقرية موزار هي التي خدمت الكنيسة ... أم أن
الكنيسة هي التي أظهرت عبقرية موزار ؟ ...

هنالك أيضا شعرت كأن إله الفن كان حاضرا ، ينثر على تلك
الأنغام الملائكية ابتسامة الرضا ...

وأمام الكاتدرائية ، ثم في صدر الجبل ، حيث رأيت قصة
« بيدرمان » وقصة « فوست » من إخراج « رينهارت » ...
فوجدت التناسق الفني ، والخلق الذهني ، والتصور القوى ، على
أتم ما يمكن أن يخرج من رأس فنان تمثيلي ، بدا لي أيضا أن إله الفن
كان ناظرا في سرور ...

نعم ... كل ذلك لا ريب فيه عندي ... إلى موقن بأن إله الفن
كان مني غير بعيد أمام كل هذه المظاهر الفنية العظيمة ...

آه ... ولكنى أريد أن أراه الساعة وجهها لوجه ... لأجثو عند قدميه ، وأشكو إليه ...

ومرة أخرى أرى فى الظلام — دون أن أدرك السبب — بعض ما رأيت من مناظر « سالزبورج » ... فتلك بحيرة « فولفجانج » على شاطئها فندق « الحصان الأبيض » كأنه طير يرد الماء ... وهذه بحيرة « زل آم سى » فى قاع جدران عالية من جبال تحيط بها ، كأنها آنية من الخزف الأزرق ، صنعها مهرة فناني « فينسيا » .

نعم ... ها هنا الطبيعة الإلهية ، والعبقرية الآدمية ، تلتقيان ! ...

ها هنا يد السماء فى هذه الجبال والبحيرات ... ويد الإنسان فى هذه المؤلفات التى خلفها « موزار » تتصافحان ! ... فى هذا البرزخ بين الأرض والسماء ... وفوق هذا الجسر بين القدرة العلوية ، والموهبة البشرية ، لحت فى الظلام عجلة تشبه عجلات قدماء المصريين ، تأتى بسرعة ، يجرها

ثمانية جياذ شهب ، كتلك الجياذ المطهمة الجميلة التي شاهدت
رسمها يزين سقف قاعة التدخين الكبرى في مبنى المهرجان ! ...
وتقدمت العجلة في دوى : من صليل السلاسل وصهيل
الخيول ... يحف بها موكب لم أر له آخر ... ولم أستطع أن أميز
وجهها من الوجوه ... فقد كنت في ذيل الصفوف ... أسير دامي
القدمين ، مقيدا في أغلال من حبال « الليف » تربطني مع غيري
من الألوف ... كأننا أسرى من العبيد خلف عجلة رمسيس
المنتصر ...

ووقفت العجلة ووقفنا أمام بحيرة « زال آم سى » وقد صفا
ماؤها صفاء دمة الحساء ... ورق النسيم ... وتألق حلى السماء ...
وإذا أجسام بضة مضيئة كأنها قطع النور تسبح في البحيرة ... ثم
تخرج متدثرة في غلائل ديمقسية مختلفة الألوان ... وإذا هي ترقص
حول العجلة رقصات إلهية ، كأنها رقصات « سالومى » في
السبع غلائل الحريية ...

فحددت البصر إلى الراقصات الجميلات ... فإذا بينهن نساء
قد عرفتهن في يوم من الأيام ...

فتلك « سنية » وتلك « ريم » وتلك « سوزى » وهذه ...
عجبا ... عجبا يا إلهى ... وهذه « ناتالى » ...

نعم ... هذه « ناتالى » بعينها ، فى تمايلها اللطيف الذى يماثل
تمايل السنبلة فى الحقول ... كما رأيتهما تفعل على وقع أنغام « رقصة
الأزهار » لـ « تشايكوفسكى » ... ورقص الجميع عند أقدام إله
الفن ... تحت أنظار العبيد الملتهبة ... وصدق الإله فى عيون
أسراه ... وأدرك ما بهم ، فسلم إلى كل راقصة قوسا ونشابا
وبضع زهرات ... فخذفن الأسرى بالزهرات ... فالتقطوها
كالجنانين ... وأراد بعضهم أن يقطع الجبال ويجرى نحوهن ،
فأوماً إليهن إله الفن ... فرفعن القسى فى أيديهن ورمين ...

آه ... إني أعرف الساعة فى قلبى سهاما أربعة منغرسه

فيه كأنها السنابل ... آخرها ذلك السهم المنطلق من قوس
الراقصة البولونية ...

وصحت عندئذ صيحة مدوية التفت إليها إله الفن قائلاً :
— من هذا ؟ ...

فرفعت صوتاً متمرداً قاصفاً :

— لماذا تفعل بنا هذا ؟ ...

فنظر إليّ حيث أقف ... وقال :

— عبد يعترض ؟! ...

فقلت في ذلة وإطراق :

— حاشاً أن أعترض ... إنما أنا أسأل عن العلة ... وأطلب أن

أفهم الحكمة ...

فأجاب في هدوء وجلال :

— أنتم جميعاً في خدمتي ... أنتم لى وما ملكت أيديكم ...

أنتم رقيق مشدود إلى عجلتى ... لكم أن تنظروا إلى

راقصات معبدى ... وأن تتأملوا جماهن ... وأن تلتقطوا

أزهارهن ... وأن تستلهموا حسنهن وحبهن ... ولكن اذكروا
دائماً أنهن لسن لكم ... كل ما لكم من متاع حقيقى : هو هذه
الحبال من الليف التى تربطكم أبدا إلى عجلتى ! ...

فصحت به :

— أبهذا نخدمك ؟ ...

فقال :

— نعم ...

فصحت :

— ماذا نصنع لك ؟ ...

فقال :

— تصنعون لى أردية جميلة ...

فأدركت عندئذ حقيقة الموقف ... غير أنى تجرأت وقلت :

— وهل نستطيع ذلك وقلوبنا قد رشقت بالسهام !؟ ..

فابتسم وقال :

— ألم تر الخياط الذى يفصل لك رداءك ؟ ... كيف يعلق
بذراعه قلبا من القطن قد غرست فيه الدبابيس ؟! ... هذا
عمله ... أنتم أيضا معشر الخياطين المنوطين بصنع أرديتى ، يجب
أن تكون لكم قلوب قد غرست فيها السهام ! ... هذا
عملكم ! ...

فتفكرت قليلا ... وقد أفحمنى الجواب ... وأشرت إلى
الراقصات قائلا :

— وهؤلاء هن الملكفات بتوريد الدبابيس ! ...

فأجاب فى ابتسامته الخفيفة :

— أراك الآن قد فهمت ...

فأطرقت مليا ... وقلت مخاطبا نفسى ! ...

— نعم ... نعم ...

ثم التفتُ إليه وأنا آخر ساجدا مستغفرا :

— عفوك ! ... لقد نسيت أن هذا من علمنا ... وأن تفصيل

أرديتك فى حاجة إلى كل هذه الأدوات ...

وشعرت بعدئذ براحة تملأ نفسي ، وأخذني نوم عميق ... لم
أستيقظ منه إلا ظهر اليوم التالي ... فنهضت وأنا لا أذكر
ناتالي ... ولكنني ذكرت صاحبي « موريس » ... وقلت :
— عجباً ! ... يخيل إليّ أن هذا الخبيث قد حدثني في أمر يشبه
مسألة الدبايس ... ولقد تمنى ذلك هو أيضاً ... وأراد أن
يحملني على الإكثار من صنع الأردنية ... كأنه أحد سماسرة
الخياطين ! ...

وارتدبت ثيابي على عجل وأنا أقول :
— إلى العمل ! ... إلى العمل ! ...
وعمت شطر « شباك البوستة العمومية » حيث وجدت في
انتظاري رسالة من صاحبي الفرنسي يقول فيها :
« صديقي ...

أبادر بالكتابة إليك ، لأن قلبي يحدثني أن الرقصة
الأخيرة قد أنتجت أثرها .. وأن قلبك النائم المشائب قد
استيقظ ... وإني لأسمع له على البعد صوتاً كفوران الشمبانيا

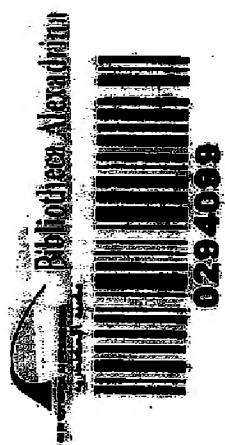
ذات الحب في الزجاجة المختومة ... فعلينا إذن أن نسرع إليه
بالكؤوس ...

إني أتناول العشاء دائما في قهوة « سيرانو » التي تحبها —
« مونمارتر » ... إني أنتظر ... والأعمال تنتظرك ... فارجع إلى
أحضان الفن ،

موريس

فوضعت الرسالة في جيبي ... وتهدت من أعماق قلبي
المرصع بالسهام :

— نعم .. واأسفاه ! ... ليس لي دائما غير أحضان
الفن ! ...



الثمن ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه